فى الريف المصرى

تأليف

مصطفى على الهلباوى

مصدر بكلمة للاستاذ الكبير الدكتور منصور فهمى
استاذ الفلسفة بكلية الآداب
بالجامعة المصرية

الطبعة الاولى ١٩٢٨

فى الريف المصرى

تأليف



مصدر بكلمة للاستاذ الكبير الدكتور منصور فهمى
استاذ الفلسفة بكلية الآداب
بالجامعة المصرية



الطبعة الاولى ١٩٢٨

الى أنصار « حقوق الانسان » في مصر !

صرخة ألم ، وصيحة حق !

مصطفى علي الهلباوي

خطاب

الى المؤلف

بقلم

الاستاذ الكبير الدكتور منصور فهمى استاذ الفلسفة
بكلية الآداب بالجامعة المصرية

عزيزي مصطفى

ربع قرن مضى — وليس بقليل أن ينقضي من حياة المرء ما ينوف عن خمس وعشرين سنة — إذ كنت تلميذاً في المدرسة الفرنساوية ، حين كانت تلك المدرسة في شارع الدواوين ، وحين نزحت من ربوع الريف الذي نشأت فيه، لأصيب قسطاً أوفى في الدراسة الثانوية ، وأذكر أن استاذ اللغة العربية — وكان المرحوم محمد بك دياب — طلب الى تلاميذ الفرقة التي كنت بها أن يكتبوا موضوعا انشائياً عن سكنى الأرياف وسكنى المدن ، وعند هذا السؤال فاضت نفسي بالحنين الى القرية التي نشأت فيها ، والمروج التي درجت عليها ، والعشير الذي رعاني بعطفه ، وفاض على قلمي الناشىء أثر من فيض هذا الحنين ، فكتبت ماشاء الله أن أكتب ، واصفاً الشمس المشرقة على الحقول ، وذاكراً قوما تهز ضحكاتهم

العالية طلق الهواء ، ومتخيلا الأنعام الآمنة السارحة ، ومحدثًا عن الفراش يتفقد الزهر البسام ، والنحل يرتشف من كؤوس النبت رحيقه المختوم ، وذكرت غير ذلك مما اتصل بنشأتي وكان له أثره في نفسي الفتية ، وكنت مخلصا حين كتبت ، وكنت شاعراً حين وصفت ، وكأن أثراً من ذلك الاخلاص وشعاعا من تلك الشاعرية نفذ الى قلب استاذي الشيخ فحنّ هو الآخر الى عهوده بالصبا ، وبأيام الريف الذي شب فيه وترعرع ، فجاء مبكراً فى ذات يوم الى المدرسة ودعانى اليه ، ولقينى بأطيب الكلمات هاشاً مستبشراً ، وكأن مامسست به نفسه من عواطف عن الريف وأحاديث الريف ، بعث في شيخوخته الفانية حياة وأملا ونشاطا !

وهكذا قد تتشابه الأمور في مجاري الأقدار ، فلقد كان فيما كتبت عن شئون الريف مبعثا لذكريات حلوة تجدد من أثرها ارتياح لنفسى وسرور ما احوج النفس اليه

***

للأيام أحكامها ، وللظروف شأنها في أمر الانسان ، فتخلق فيه عادات غير التي نشأ عليها ، وتحبب اليه ما كان لايحب ، وتبغض اليه ما كان لا يبغض ، ولعلها حكمة بالغة حين أوصانا السلف الصالح بأن نحب هوناما ، ونبغض هوناما

قضت الأيام أن تعيش فى المدينة كما عاش غيرك من قبل ، وأن تهيء لك المدينة مقاصد أخرى ، وتكيف عصبك وذوقك

وعقلك بكثير من شئونها ، وهكذا أصبحت ترى في الأرياف رغم حبك لها عيوبا ، وتلمس فيها عوجا ، وترى مواضع للشفقة لا يعزيك عنها إلا أن تصيح بأصلاح الناقص ، وتقويم المعوج ، وتغيير المكروه ، ومن الحق أن ترفع الصوت عاليا لتنشد الخير للريف وأهله ، وذلك لأن المدينة علمتك أن فى حياتها من الخير ما يصح أن يتجمل به الريف ، وأن الحضارة وسعت من الحسنات ما اذا أضيف منها الى حياة البداوة لكسب الانسان اللذتين وباء بالحسنيين ، وكلنا أو أكثرنا مثلك ، طابت له الأرياف فى حياتها ، وأحس بخير المدينة ، فأصبح يتمنى أن لو جادت الحضارة بشيء من محاسنها على الريف ، وجاد الريف بشيء من محاسنه وطيباته على المدينة !

وما هو إلا أن نشعر جميعا بما تشعر ، وننشد ما تنشد ، حتى يتكون من مشاعرنا وأناشيدنا لحن اجتماعي وصوت قاهر يردد الأصلاح للريف ، ولا يلبث الزمن عند هذا الصوت القاهر إلا أن يلبي الدعوة ، ونرى من الريف المعيب جنات ، ونرى في القرية المهملة المنبوذة موطنا تتغذى منه الأنفس مبادىء الجمال !

***

اذا كان ما كتبت لا يؤثر فيمن كتبت لهم من قرائك الذين تحسبهم مسئولين عن اصلاح الريف ، واذا كان قلمك فيما نمقه وأجاد فيه ، لا يؤثر في القارىء بحيث يشعر بشعورك في الأمر

ويفكر بفكرك ، فأن فيما كتبت فضيلة كبرى من فضائل القروي المثقف، اذ يتذكر بالخير مسقط رأسه ،ويهيج شوقه الى ميدان طفولته ونشأته فيقول : « ذهبت اقضى فروض الذكرى والوفاء . لقريتي التي غذتني رضيعا ، وتعهدتني صبيا ، وشاهدتني أحبو على أرضها ، وأعبث بمائها ، وأجري في حقولها ، واتعلم مبادىء القراءة والكتابة فيها » ، ثم يردد : « الى الريف ! الى ذلك الحمى الهادىء ، وهذا المعبد الساجي الخاشع ، الى مهبط النفوس الثائرة ، ومسكن القلوب المعناة ، ومجمع الآمال الشاردة . . . . » ، ويقول : « ما أجمل تحية الشمس لأبناء الريف ! وما أجلها حين تطلع من خدرها ، وتتلفت من حولها ، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها ، وبسلطان دولتها ، تصحو من نومها ، وتنهض من سريرها ، تتزايل أعضاؤها من فتور النوم ، ويتراخي جسمها ويتهدل من كسل الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة ، تظهر على عيونها الدعج الناعسة الفاترة ، والنائمة اليقظة ، والمتبلدة النشطة ، وعلى جفونها الخامدة الساكرة ، وفى نظراتها المتكسرة الحيية »

***

وجميل بالفتى المصري الناشىء أن يشعر بمصريته ، فيما لبلاده من خصائص . ولبيئته من مميزات ، وفيما لعشرائه من عادات ، ولأيامه من ذكريات ، فيذكر الكتاب كما ذكرت ، ويذكر الريفيات كما ذكرت ، ويذكر الأغانى كما ذكرت ، وفي تلك

الذكريات المتصلة بمصر الصميمة ، وبسنى حياتك الماضية ، معني دقيق للوطنية والقومية ، فاذا كنت أنا اليوم أغتبط كل الاغتباط ، اذ أرى أحد أبنائى النجباء فى التلمذة . يعترف بالجميل للقرية : أمنا المشتركة ويريد لها الاصلاح ، فأنى طالما تألمت حين رأيت فئة من الشبان تناسوا نشأتهم ، وعاشوا لأنفسهم لاهين لاعبين ، ناعمين بما تقدمه لهم الحضارة ، متناسين مصر ، وريف مصر ، وفلاح مصر ، الذين نشأوهم وانتظروا منهم لأنفسهم المعونة !

* **

لست أدري أستظل محتفظا بكل ما جاء في كتابك من آراء ، أو ستغير الأيام فيها ما من شأنه أن يتغير مع الأيام ؟ على أنه ليس بهام في نشأة الفتى خطأ الرأي أو استقامته ، ولكن الهام رغبته في الخير ، واشتعال وجدانه بالواجب ، وتفكيره فيما يدعو الى التفكير ، وانك فيما كتبت تشعر وتفكر ، وما أسعدنا بشبابنا حين يشعر ويفكر ، ولك إذن أخلص دعواتى واعجابى وحبي الصادق .

ديسمبر سنة ١٩٢٨ — منصور فهمى



مقدمه

كتبت هذه « الرسالة » أو هذه « الأحاديث » متأثراً بعاملين قويين ملكا عليّ مشاعري ، واستوليا على كل كياني : وهما الرحمة والوفاء ، ،وما أحسب ان فكرة من الفكر استأثرت بنفسي واستبدت بعقلي مثل هذه الفكرة أو هذه العقيدة التي أذيعها فى هذه السطور ممزوجة بلحمى ودمي ، مندمجة في كل سائري وعالمي .

أخذت نفسى بنشدان وجه من وجوه الاصلاح فى مصر لأفتتح به حياتى الجامعية ، فلم أر موضوعا أجدر بالحديث وأولى بالعناية وألصق بذاتيتي من موضوع « الريف المصري »

ولقد خامرتنى هذه الفكرة منذ سنين ، وأخذت فى عقلي وقلبي أدوارها التي يأخذها كل الأحياء، حتي اذا شعرت بضغطها ونمائها ويفاعتها ، أخرجتها من عالم الباطن الى عالم الظاهر ، أو من عالم النفس الى عالم الوجود !

فكرت فى حال الفلاح المصري كثيراً وفي لون الحياة التى يحياها في عصر النور والعرفان والحرية والحق والجمال ، في عصر

لا أظن أن الأدوار التي مرت بها الانسانية كلها بلغ فيها التنازع على البقاء في الحياة ، ما بلغه فى هذا العصر المتوثب الطامح المسلح بكل صنوف الآلات والقوى

وسط هذا العالم الصاخب المضطرب المتنازع على الحياة الموفورة السامية ، الطامح في نور جديد يرشده الى عالم أرقى والى حقيقة أسمى والى منزلة أقدس . .

فى هذا العصر الطامح المجاهد ، والذي تفتحت فيه العيون التي أغمضها الجهل فرأت نور الوجود كما أراد الله ان يكون ، والذي تحررت فيه العقول — أو كادت تتحرر — من قيود التعصب وأسر العماية ومن سلطان البابوات والملوك وأعداء العقل ، فأمكنها أن أن تشع شعاعها على هذا العالم الذي أراد الله ان نعرفه ليمكننا أن نفهمه ونستمتع بما فيه من نور وحق وجمال ، ولكن أبت السياسة وأبى الدين — استغفر الله — ولكن أبى الساسة وبعض رجال الدين أن نعرف هذا العالم الذي نعيش فيه وان نرى هذا النور الذي خلق من أجلنا ،،،

في هذا العصر الذي كاد يقضي على كل صنوف الاستبداد وألوان الاعتساف وظلم الانسان لأخيه الانسان ، يعيش الفلاح المصري العيشة التي كان يعيشها زميله الفلاح فى حكم الرومان والبطالسة والعرب والمماليك ، كأنه لم يدر بعد ماذا حدث في العالم ، وماذا طرأ على « الانسان» !

شعرت بهذه الحال السيئة الاليمة وبهذه الحياة التي يحياها فلاحنا في القرن العشرين ، فحركني باعث الرحمة والرثاء لحاله ، وأنا منه وهو مني ، وباعث الوفاء لهذا البلد الامين الذي شقي ببعض أبنائه والذي نكب بتلك الادوار والعصور السود التي مرت على حياته ، حتي غدا تاريخه سلسلة متصلة من الجور والبؤس والظلام ، لا تكاد حلقة تنفصم عن حلقة ، وباعث الوفاء لهذا الريف الذي حبوت على أرضه وعشت تحت سمائه وترعرعت بين حقوله ، والذي يعاني من صنوف الاهمال والتغافل ما يعاني ، في الوقت الذي نأخذ منه كل شيء ولا نعطيه أي شيء ، بل نحرمه كل ما نستمتع به نحن من علم ومن حرية ومن رغبات النفس والشعور بالحياة !

يحيا فلاحنا حياة لا ترضاها نفس أبية كريمة تحركها أبسط صنوف الرحمة والوفاء لهذا الفلاح ولهذا البلد ، حياة لا يقبلها رجل يغار على بلده ويعرف معنى الوفاء له ، ويود له النهوض والمكانة التي تليق بسابق مجده وقديم حضارته الأولى ، حياة يتقزز منها كل فرد يقدر لفظة « انسان » وتدفعه الشفقة والرثاء لأخيه « الانسان » !

من الاحتقار « للانسان » أن يعيش الفلاح المصري هذه العيشة النكداء ، ومولاه الغني يلبس الحرير ويتوسد الدمقس بما يقتطع من لحمه ويشرب من دمه ويعيش في ترفه وعزه على كده وبؤسه ، ومع ذلك لا يكلمه الا بالنظرات الشزراء وبالخدود المنتفخة والوجه المتورم من الصلف والتيه والتعسف ، ولا يعامله الا بالسباب

والتعذيب ولا يخاطبه إلا باللطم « و الركل » وحكوماته المتعاقبة المتغيرة عليه والتي تمتص موارده وم رتبات موظفيها من عرقه ومن دمه ، لا تكافئه الا بتجاهله واحتقاره ، وإن سخت في الكرم وجادت بالعطاء تكافئه بمعسول الاماني ومكذوب الامل بما تلقى من وعود، وبما تحبر من كلام ، وبما تزوق من خطب !

من الاحتقار للوطنية المصرية وللنهضة القومية الكبرى ، وللبعث العالمي ، و « للروح الانسانية العامة » ، وللدماء التي أريقت، والارواح التي زهقت ، والضحايا التي تكدست فى ظلمات القبور ، والاشلاء التي تبعثرت في الاجواء تحت أزيز الرصاص وقذف المدافع ، وللنساء التي أيمت والاطفال الذين يتموا ، وللبيوت التي خربت وللعائلات التي نكبت فى ابنائها وفلذات أكبادها ، من الاحتقار لصيحة الحق وقومة العدالة وهبة الحرية ، أن نستمتع ببعض ما بذلنا في سبيله من مهج وأرواح، ثم يبقى الفلاح المصري فى حقله وفي أركان داره المتهدمة المظلمة القذرة بين مواشيه وحميره لا يفرق كثيراً بين الجور والعدل ، ولا بين الحق والباطل ، بل ولا بين الحرية والعبودية !

مضى الزمن الذي كان فيه الانسان يصبر على الضيم ويخنع للذل ويقبل مكرها يد جزاره وذابحه ، وبادت تلك الاعصر التي كانت فيها الانسانية مقسمة الى قسمين أو صنفين من الخلق :

انسان وشبه انسان ، للاول الغنم والترف والعز والسلطان ، وعلى الثاني الغرم والذل والشقاء والهوان !

لم يرد خالق الانسان حين خلقه وسواه الا أن يكون هذا « الانسان » مالك نفسه وسيد أمره ، له مما في هذا العالم من نور ومن حرية ومن علم ومن جمال نصيب موفور يليق بوجوده السامي وخلقه العالي ، فما بال الانسان نفسه يجعل من نفسه آلها أو شيطانا يعبث بالخلق ويقسم الناس الى رءوس وأذناب والى أسياد وعبيد ، في عصر امحت فيه كلمة « العبد » وعلت كلمة « الانسان » ؟؟

ولهذا فليست هذه الرسالة الا صيحة الحق وصرخة العدالة اضمنها هذه السطور التي تكاد تحترق من لهيب الاسى ، واني لو بدلت عيونا لشفت ولترجمت عن حرقة الشقاوة وذلة الدموع وجراحات الالم ، صيحة من صميم القلب وصرخة من اللحم والدم ، يبعثها شاب أمضه الالم ولاعه الاسى اشفاقا على هذا الصنف من من الانسان الذي له اسمه وليس له مسماه ، وله لفظه وليس له معناه !

واني لم أحرص على نشر هذه الرسالة أو هذه الاحاديث الا لأني أحب أن أورخ بها حياتي الجامعية وان افتتح هذه الحياة التي أرجو أن تكون مباركة خصبة بنشدان وجه من وجوه الاصلاح والاحياء المصري والبعث القومي ، وأن يتوج هذا الافتتاح بأشرف وأنبل مافي الانسان : الرحمة والعدالة !

وأحب أن يلاحظ حضرات القراء الكرام اني حين فكر

في كتابة ثم نشر هذه الرسالة الصغيرة لم أبغ بها إلا أن أصل الفلاح المصري بالبيئة المدنية المصرية لانها تجهله كل الجهل ، ولذلك لا تقدر بؤسه ولا تفهم لغة آلامه ، وملاحظة ثانية أيضاً هي الا يعطوا هذه السطور صبغة أكثر من انها «أحاديث» ، إذ لست أنحل لها صفة « كتاب » ولست أدعي لها صفة «التحقيق العلمى» ، وانما ملاحظات رأيتها وخواطر لعبت برأسي وآلام شعرت بها ونداء باطنى هتف بى ، فسطرتها على الورق كما هى لتكون صورة من شعوري الأول وصدي لنفسي المضطربة الجياشة بكل ألوان الشعور وصنوف الاحساس !

وملاحظة ثالثة : هى انى حين أردت أن أكتب عن الفلاح المصري وعن ريفنا لم أختر إلا صنفا واحداً من الفلاح هو الغالبية العظمى في كائننا القومي ، وهو الفلاح الذي لا يملك شيئاً بل يعيش اما مأجوراً أو مستأجراً ، فان خلت هذه السطور من التعرض لصنوف الفلاح الاخرى فذلك لانى لم أشأ أن أمسها بالتصوير أو أتعرض لها بحديث

واني لسعيد جد سعيد بين اطواء نفسي وأمام محكمة ضميري كلما فكرت انى بذلت كل جهدي لأكون أميناً فى تصوير ريفنا المصري وحياة فلاحنا ، صادقا في التعبير عن شكواه وآلامه

ولست أنكر ان هذه الاحاديث قد ينقصها « وحدة الفكرة » أو تزاوج المعاني واتساقها اتساقا منطقيا منظما ، وتعليل هذا اني

أحببت أن أصور مختلف مشاعري وما يقع عليه بصري وما تجيش به نفسي وما يستغرق فيه عقلي وتأملاتى حين شعوري واحساسي وأنا فى ريفنا وبداوته وبين فلاحنا وسذاجته دون أن أراعي فى ذلك « الوحدة الفكرية » أو « الصبغة الفنية » ، ولذلك نحلت لهذه السطور المبثوثة في هذه الاوراق صفة « أحاديث » لتدل على نفسي وعلى شعوري وعلى قصدي حين كنت أكتب ، وحين كنت أشعر ، وحين كنت أفكر

***

هذا نصيبي الآن من الاصلاح المصري وواجبي من الاحياء القومي أقدمه خير ما أكون مغتبطا وراضياً ، لأنه مظهر للفكرة « الانسانية » التي أحبها واحترمها ، وأعمل على هداها ونهجها ، وأعيش في سبيل تحقيقها ونجحها ، ولانه جانب من « نفسي » وعصارة من دمي ، وشطر من وجودي ، ولاني أشعر بانى أرضيت به ضميري ، ووثقت فيه بنفسي ، حين قمت ببعض وواجبي ، واضطلعت بجزء من مسئوليتي ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها !

سبتمبر سنة ١٩٢٧ — مصطفى الهلباوي

الفصل الاول

(من ذكريات الصبا)

غادرت المدينة — أستغفر الله — بل هي التي أقصتني عنها ، وأبعدتني عن ملاهيها ونواديها ، عن حدائقها ورياضها ، عن فاتناتها وساحراتها ، عن مشاهد حسنها ومعابد جمالها ، عن الصراع فيها بين الحياة وأبنائها ، عن الشعور فيها بمعنى « الحياة » شعوراً يتغلغل في أجزائها وأرباضها ، عن مدارسها ومعاهد العلم وكعبة الثقافة فيها ، ومناط آمال الشباب المصري الطامح في عهد جديد ، ونور جديد ، يقوده الى « العالم الجديد » ، وينزله منزلة « الانسان الجديد » !

نعم ! فارقت القاهرة ، وحيل بيني وبين الجامعة ، مهبط آمالي ومعقد رجائي وحقل جهودي ووادي أحلامي ، وقالوا : عطلة ! !

أنى أذهب إذن لأقضي شهور تلك العطلة الطويلة المملة ، لاعطي بدني حقه من الراحة وعقلي حقه من الرياضة ؟ ؟ . . . الى الريف ! ! الى ذلك الحمى الهادىء ، وهذا المعبد الساجي الخاشع ! الى مهبط النفوس الثائرة ، ومسكن القلوب المعذّبة ومجمع الآمال الشاردة ، ومسرح الاحلام الهائمة ! ! !

أقصيت إذن عن المدن لأستعيض عن صخبها وحضارتها ،

بهدوء القرية وبداوتها ، ولأستبدل بأبن القاهرة المتحضر المتعلم ، ابن القرية الساذج الجاهل ، فكثيراً ما نجنح الى البساطة والبداوة والجهل ، نطلب فيها قناعة الرضا وهدوء الاطمئنان ، وجلال البداوة ، ونستجم فيها من جهاد العلم ومن اضطرابه وتذبذبه ، وشكوكه وحيرته ، ومن صلف الحضارة وتكاليفها ، وهل حياتنا ياصاح الا مزيج مضطرب من الحضارة والبداوة ، والعلم والجهل ، والنور والظلام ، والحق والباطل ، وما شئت من هذه الظاهرات المتناقضة المتعاكسة التي هي سر نظام الوجود ، والنغم أو الاتساق الذي ينظم اضطراب موسيقى الحياة ؟ هل حياتنا الا تفاعل الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والقوة والضعف ، والايمان والشك ، وفى هذا التفاعل وهذا الازدواج قوة الحياة ، وجمال الوجود ، ووحدة العالم ، وكمال الانسانية جميعا ؟

ذهبت إذن أقضي فروض الذكرى والوفاء . لقريتى التي غذتنى رضيعا ، وتعهدتنى صبيا ، وشاهدتنى أحبو على أرضها ، وأعبث بمائها ، وأجرى في حقولها ، وأتعلم مبادىء القراءة والكتابة فيها ، وأحفظ القرآن الكريم في كتابها أمام كثير من فقهائها ، ذهبت أستعيدها ذكريات الصبا ، وأقسم لديها يمين البر والحب والولاء ، وأتخذ من دورها وقنواتها وحقولها « وكتابها » وحاراتها وأجرانها وأشجارها وربواتها وحدائقها ومقابرها ، عونى على الذكرى ، ووحيي عند التفكير ، والهامي حين الكتابة ، وأصل

حلقة من حلقات حياتي بالفلاح الساذج الجاهل الطيب المسكين البرىء الذي أحبه وأجله وأشفق عليه !

وإذا ما ذكرت « الكتاب » عادت بي ذاكرتي الى عهود الطفولة والصبا ، الى تلك العهود الخالدة من العمر ، بما فيها من حرية تكاد تكون مطلقة ، الى عبث بالغ أقصاه ، الى خوف ورهبة من الفقيه الاعمى ، يلطفه الحنين والشوق الى اللهو مع أطفال الكتاب تارة بفقيهنا ، وتارة أخرى بعريفنا !

لا زلت أذكر « الكتاب » ويوم كنت أساق اليه سوقا بالعصا ، وعيني تذرف بالدموع ، ولا أسكت عن بكائي ولا أجفف دمعي ، حتى يرضيني أبي بقطعة الحلوى أو بالقرش ، تشفعه قبلة أبوية طاهرة ، وكلمة رضية كريمة ، ولا زلت أذكر « سيدنا » الضرير وهو « استاذي » الاول — ان صح هذا اللقب — وكيف كان يرهبني بأسه ويخيفني شكله ويزعجني صوته ، ولا زلت أذكر « لوح القرآن » الخشبي تارة والصفيحي تارة أخرى ، وكيف كنت أنا السابق الفائز فى حفظه واستظهاره بين أولاد الكتاب وحضرات الزملاء !

ولا زلت أذكر أيام المواسم والاعياد ، لا يصرفنا « سيدنا » حتى اسلمه في يده (البريزة) وحتى يسلمه الآخرون الفطيرة أو قطعة السكر .

ولا زلت أذكر ذلك العريف الضرير أيضا وصوته الأجش

الخشن ، ونبراته الجافة الغليظة المنكرة ، حتي كاد ان يكرّه لدي وأنا فى طفولتي اسماع القرآن !

ثم لا زلت أذكر ولا يمكنني أن انسى يوم كان هذا «السيدنا» ينيب كل واحد منا فى أن يقرأ فى البيوت (ربعاً) حتي يستريح هو من عناء القراءة ويأخذ مرتبه من الفلاحين المساكين زوراً وبهتانا وغشا ، ولا زلت أذكر ذلك اليوم العصيب ، يوم أعد « سيدنا » آخر (الفلكة) الخفيفة ، ويوم أعد معها (الكرباج) لا العصا وغسله بالماء والملح ليتفنن فى الايذاء والايلام ، وجادت رحمته وتدينه الصادق بأن أمر أمره بالقاء ثلاثا من رفاقي أمامه فى الفلكة ، اتهموا بأنهم سرقوا نقوداً من آبائهم وشروا بها سكراً وشاي من الدكان ، أذكر ذلك اليوم كأنه الآن وأذكر يوم وقف هذا « السيدنا » الثاني (على حيله) وربط كل واحد بدوره فى الفلكة وأعطاه نصيبه من الضرب والعذاب الى أن أدمت أقدامهم ، والعريف الجبار الضرير هو الممسك بالفلكة آلة التعذيب ، امساكة لا تخلو من تفنن وأبداع ، وهو بذلك فرح مغتبط ، ونحن جميعاً جالسون على (الحصيرة) حول هؤلاء الفرسان الثلاثة ، نشهد هذا المنظر المؤثر الجميل ، منا من يضحك شامتا فرحا ، ومنا من يبكي شفقة وتألما ، ومنا من اصفر وجهه ومن ذهب رشده من الوجل والخوف خشاة أن تدور عليه الدائرة يوما فيمثل به هذا التمثيل المفجع

ولا زلت أذكر تلك الغرفة الضيقة المظلمة من الطوب النيء (الاخضر) ، والقناة التي كانت أمامها حيث يلعب فيها الاوز والبط الصغير الجميل ، وحيث نعبث فيها بأقدامنا وبما تقذفه فيها من أحجار ، ثم قطع الحصير الاخضر من أوراق البردى وأعواد البوص ، وتلك « الالواح » اللامعة الزاهية من الصفيح موضوعة على الرفوف المتربة المغطاة بنسيج العنكبوت ، وتلك الدوي المصنوعة من الطين المحروق ، وحبرها المتخذ من هباب المصابيح والمسارج ، والمختلط بقطع من الخرق البالية القذرة « وسيدنا » الضرير المعمم ، ومركوبه المرقع وبجانبه عصاته الجبارة « ومترعته » ، المستبدة الحاكمة بأمرها ، وفلكته المصنوعة من حبال الليف تكاد تبتسم تيها وزهوا بضحاياها وبجبروتها وبما يعلق فيها من أرجل وأقدام لا تزال طرية غضة في غضارة العمر ونضارة الصبا ، وهؤلاء الاخوان الزملاء خارجين من « الكتاب » دار سجنهم ومنزل تعذيبهم ، بجلاليبهم المتربة القذرة ، وبوجوههم المعفرة وأيديهم المزينة بالحبر ، وان يخرجوا أو يغادروا عتبة « الكتاب » حتى يهرول كل الى داره يعلن الى أمه خروجه من « الكتاب » ثم الى الحارة ، والى الكرة ، والى الاجران !

ولا زلت أذكر هذه اللذة الكبرى التي كنا نشعر بها أطفالا ، حين نبتاع لوحا أو دواة أو مصحفا من « السوق » ، وتدفعنا هذه اللذة الكبرى وهذا الفرح الشديد الى وضعها بين

أحضاننا حين ننام ، حتي لا يسرقها منا سارق أو يعبث بها عابث

ولا زلت أذكر أيضا تلك الساعة العصيبة حين كان يتربع « سيدنا » ويخلع « مركوبه » او « بلغته » ، ويضع بجانبه مقرعته وفلكته وينادي كل واحد منا بدوره فى استظهار ما حفظ من المصحف ، فان أخطأ الشكل أو مخرج الالفاظ أو تلعثم فى كلمة أو آية أو قدم أو أخر ، أسعفه بالمقرعة على ظهره أو على وجهه أو على عينه بحسبها يده أو ذراعه !

نعم ! لا زلت أذكر كل هذا ، تلك الايام والعهود الجميلة الخالدة بحداثتها وطفولتها ، وتفاهتها ومرحها وفوضاها ولهوها ، ورهبتها وفزعها ، وهل تنسى ذكريات الطفولة وعهود الصبا وأزمنة العبث؟؟

وسيبقى كل هذا فى ذاكرتي مرتسما فى خيالي ممزوجا بلحمى ودمي مندمجا فى كل اجزاء نفسي ، لانه الصفحة الاولى من تاريخ « نفسي » واللبنة الاولى فى بناء « ذاتيتي » ولهذه الصفحة عندي أجلال القدم وجمال العبث ودالة الصبا

كنا فى تلك العهود المرحة التي لا « مسئولية » فيها ، ولا شعوراً بواجب ، ولا تفكيراً فى الغد المجهول ، ولا بحثا عن حقيقة مخبوءة فى ظلمات الوجود ، تائهة فى « اللانهاية » الواسعة الطويلة العميقة ، كنا فى تلك العهود من العمر ، عهود الطفولة والصبا والعبث والفوضى والفساد ، نعبث بالتراب والرمل ونلهو بكل

ما يقع تحت ايدينا المخربة المهدمة ، حتي الزمن الجبار المستبد كنا نلهو به فى صبانا ونسخر منه ، وهاهوذا الآن يبادلنا اللهو والسخرية وكأنه يقول لنا السن بالسن والعين بالعين ! ! كنا نبني بيوتا من الرمال بين مفترق الطرق وعلى شواطىء الترع ، كأنها بيوت آمالنا ورجائنا ، ثم نجري حولها الماء فى الارض التي خططناها للحدائق والرياض والأشجار ، فاذا هدمت هذه « المنشآت » وهذه الحدائق شاة أو بقرة أو جاموسة أو انسان ، صخبنا وصحنا وغضبنا وبكينا ، لانها هدمت ما بنينا ، وقوضت ما أنشأنا وسخرت مما فعلنا

ولكن لا يلبث الرمل أن يذوب ، ولا يلبث البيت وحدائقه ورياضه واشجاره أن ينهار ، وهكذا حالنا فى هذا الوجود ! نبني آمالا وأحلاما .. كذابا من الرمال ومن السراب ، ونشيد قصوراً وحصونا من الباطل ومن الوهم ومن الخيال ، وننفق كل أعمارنا فى طلائها وزينتها وزخرفها والتيه فى صحراواتها وفلواتها ، حتى تخيب الحياة آمالنا وتهدم بيوتنا التي أودعنا فيها صبانا ورغباتنا وهوانا وأحلامنا وتفكيرنا وكدّنا وجهودنا وبحوثنا ، وحتى يجيء ذلك «الطوفان» الطامي القاسي وتلك « الموجة » الكبرى فتأخذ معها كل شيء وتبتلع كل ما فى الوجود ، فاذا الآمال رمال ، واذا الاحلام سراب واذا البحث والتفكير هواء !!! حقيقة كخيال ، وحق كباطل ،

وصدق ككذب ، وعلم كجهل ، وغناء كبكاء ، ووجود كعدم ،
وشيء كلا شيء ! الا ما أكذب الحياة !!!

يا ليت الحياة كانها عهود الصبا ودولة الشباب!

فيا ليتنا عشنا حيـــاة بلا ردى
مدى الدهر أو متنا مماة بلا نشر

ولـكن هل تجدي « ليت » ؟ !!!



الفصل الثانى

ريفنا المصري

نلجأ جميعا الى الهدوء والسكينة ، نحتمى بهما من الصخب واللجب .

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوت انسان فكدت أطير

وأين نحتمى من صخب المدن وتكاليفها وضوضائها ؟ وأين نروح عن النفس عناءها وعن الجسم متاعبه ؟ فى الريف كل ما نطلب من هدوء بعد صخب ، وسكون بعد حركة ، وبداوة ساذجة بعد حضارة متكافئة ، فى الريف مستراح للمعني ، وملاذ للمتعب ، ومتنفس للمكروب ، نعم ! فى الريف ننشد راحتنا وطمأنينتنا ، ونجد عزاءنا وسلوانا ، ونرى أنفسنا رؤية الحقيقة فلقد قال « أمرسون » : « ليس الأنسان سوى نجاح الطبيعة فى تصوير نفسها » وفى أي مكان نشهد جمال الطبيعة وجلالها ، ونجاح تصويرها وكمال فنها ودقة صنعها . خيراً من الريف ؟ فى الريف معابد الجمال

حقا لمن أراد أن يعبد الجمال ، فى الريف « ألوهية الفن » لمن شاء أن يستلهم ملائكة الفن ، هنا « قدسية الدين » وخشوع الايمان ونور اليقين ، لمن غشت عيونهم ظلمات الشك ، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، هنا يعبد الله فى كل مكان ! فى الأرض منبت الخير والبركة ، وفى الشمس باعثة الدفء والحرارة والحياة ، وفى السماء الزرقاء ، وفى النجوم المتألقة ، وفى القمر المنير ، وفى الحقول الخضراء ، وتحت ظلال الكافور والنخيل والتوت والصفصاف ، وعلى حافات الترع والقنوات الجارية الوديعة المرحة ، وفى وجوه الريفيات الجميلات جمال الله لا جمال « الأنسان » !

ما أجمل الطبيعة فى الريف ، وما أوسع « الكون » هنا ، وما أرهب « اللانهاية » ! وما أسهل طرق « المعرفة » لمن يريد أن يبحث عن « المعرفة » ، هنا فى جمال الريف وهدوئه ، وتحت ظلال أشجاره الظليلة الدافئة المتراوحة ، يجلس الباحث عن « المعرفة » يستجلى الكون الواسع وأسراره الدفينة ، ويجول فى تلك « اللانهاية » الواسعة التي لا ساحل لها ولا حد تنتهي عنده ، ليصل الى الله ، الى العلة الاولى أو علة العلل أو « الحقيقة المطلقة » ، من طريق الأرض والسماء ، والنجوم والأفلاك والأجرام والنبت والشجر والماء والشمس والزهر والحيوان ، من طريق « الأنسان » ومن سبيل « الجمال » ، فمن « الجمال » وحده نتصل بالله ونعرفه

ونعبده ونفهمه ونحبه ، والحب كما يقول « تاجور » هو كمال « الشعور بالنفس » ، ونحن لا نحب لأننا لا نفهم ، أو بعبارة أخرى نحن لا نفهم لأننا لا نحب ، لأن الحب هو المعنى الأسمى الأكمل لكل ما حولنا ، فليس هو عاطفة فحسب ولكنه « الحق » ، ولكنه الفرح الذي فى صميم كل الخليقة »

الجمال والحب إذن هما سبيلنا الى الله وطريقنا الى عبادته ومعرفته ، ففى « الجميل » نرى الله وندرك سره فى خلقه ، ونعبده فى قدرته وفى ابداعه وفى كماله ، ونتحد فيه اتحاد العلة بمعلولها ، ونفنى فيه فناء الضعف فى القوة ، والنقص فى الكمال ، والتشويه فى الأبداع والنهاية فى « اللانهاية »

واذا كان الجمال أساس الحب ، وكان الحب أساس الدين ، فأقوانا شعوراً بالجمال وأدقنا حساسية للحسن ، هو أشدنا خضوعا لسلطان الدين ولقداسته ، وأصحنا فهما ومعرفة لملكوت الله وعظمته وكماله

واذا كان الريف فى الغرب معبد الجمال ، ومهبط السحر ، ومستلهم الفن ، ومبتدع « الخلق » والتكوين ، ومستراح النفوس العناة ، ودواء القلوب الكسيرة من ضنك الحياة ومن آلامها ، والصدور المكلومة من غدر الزمن وتنكره ، ومسرح الأرواح الهائمة الحائرة تبحث فى « اللانهاية » الأزلية عن نور اليقين وعن سر الوجود ، فيتبدد شكها فى أضواء الايمان وفى نور « الحب والجمال » !

أقول اذا كان الريف فى الغرب عزاء الصابين وسلوى البائسين وراحة المكروبين ومحج العاشقين ومعبد المؤمنين وملكوت « الفنانين الخالقين » ، فهل لنا ريف نحج اليه ونحتمى به ونعبد فيه الحب والجمال والقوة مثل ما للغربيين من ريف ؟ وهل لنا ريف يخلق من العظماء ومن النابغين ومن الفنانين ومن « الخالدين » ما يخلق ريف الغرب من رجال العقل والقلب ، من أساطين الحكمة وأنبياء الحب والجمال ؟ ؟ ؟ وهل لنا ريف يتجلى فيه « وحدة الوجود » وتتمثل فيه قرابة « الجزء والكل » تمثيلها فى ريف الغرب ؟ ؟

يؤلمنا أن يكون الجواب : لا ! ، يؤلمنا أن نصرح بأن ريفنا المصري كما هو الآن غير مستعد لأن يخلق لنا من الفنانين ومن « الخالدين » ومن « الرسل » ما ينتظر منه فى عصر الأحياء والبعث والخلق !

يؤلمنا ويندي جبيننا من الخجل والأسى ، ونحني الرأس ذلة وضعفا ، كلما وفد علينا من جماعات الغربيين والنازلين ، وكلما ضربوا فى ريفنا المصري الساذج النائم السادر ، فلا تقع أبصارهم إلا على كل ما تتقزز منه النفس وإلا على ما يحقر من نهضتنا الكبرى ويخفض من كائننا القومي ومن تاريخنا الخالد ، « فأوساط الجمال الحي » فى ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافى لما يفجر القلوب بالشعر الوجدانى الحي وبالعواطف النبيلة السامية فى يقظتها

وفي تجددها وفى حيويتها ، ولا لما يصعد بالأرواح العاليـة فى «الـكون العظيم » وفى «الملـكوت الأعلى» وفى « سماوات الفن » نعم ليس فى ريفنا المصري مهبطا لرسالة الحب ولا لوحي الجمال ، ولا ربوعا لفيض الألهام وفلسفة الأبداع وسر « الخلق » ، ولا مبعثا لوفرة « الحياة » وزيادة « الأنتاج » وبهر السحر وسحر الفتنة ، بل دور متهدمة متناثرة ، وحقول نائمة سا كنة كسلة ، وترع را كدة كدرة فاترة ، وأشجار متجردة عارية صامتة ، وناس فقدوا أو أماتوا «حيويتهم » ما بين ضنك الفاقة والاسى ، أو بين الافلاس في سوق « الجمال والحب » !

نعم! يكاد يكون من أشد العوامل في هبوط «حيويتنا» وفى الافلاس في خلق رجال ونوابغ وفنانين وشعراء ينهضون بنا وبالعالم جميعاً من هذا الركود الروحي وهذه الرخاوة الشعورية الفاترة المتبلدة ، هو اننا لا نعني قليلا ولا كثيراً بتوسيع دائرتنا الثقافيه من ناحية « الجمال » ، فليس للحياة لدينا قيمة أكثر من انها وسيلة الى ارضاء شهواتنا المادية المنفعيه ، والى استدرار الأموال واكتنازها ، والى حشو البطون وامتلائها ، أما قلوبنا ، أما شهواتنا الروحية ، أما ثقافتنا « الشعورية » ، أما ناحيتنا « العليا » وكائننا « الأسمى » ، فتكاد تكون لدينا جميعا نافلة من النوافل ، و « لا شيء » بين الأشياء ، وهذا ما يجعل حياتنا موحشة قفرة فقيرة مظلمة مبغوضة ضيقة ، وهذا ما يدعونا الى أن نطأطيء الرأس ذلة وخجلا وعاراً ، اذا

ما سمعت آذاننا أسماء نابليون وروسو وشكسبير وجوت ودانت وبيتهوفن وفولتير وماركوني وأديسون وتاجور وغيرهم ، هنا أمام هذه الاسماء الخالدة نشعر بذلة في (فخارنا القومي) ، لاننا لا نعطي حياتنا قيمة إلا من الوجهة المنفعية ، ولا نفهم الحب إلا انه وسيلة ، ولا الجمال إلا انه فريسة شهوة وضيعة ، وملهاة فارغة لنفوس خاملة وقلوب ضعيفة

واذا كان هذا حالنا من الفقر في الشعور والخمود في (الحيوية) والركود فى (الأنتاج) واذا كنا لا نعنى كثيراً ولا قليلا (بثقافة الجمال) ولا نخلق لأنفسنا بأنفسنا معابد الجمال ومهابط السحر ، ومباعث الفن والخلق والفتنة ، من هذه الأرض المدحوة الخيرة المحسنة الغنية ، ومن هذه الحقول الخضراء الوديعة الساكنة ، ومن هذه الأشجار العاليــة الصامتة المتراوحة ، ومن هذه (الكائنات العليا) كما يسميها (لامارتين) التي ينقصها يد الأثري ليخرجها وينفض عنها غبارها ، ويبرزها للعالم وللوجود فيضا للالهام ورسولا بالنور وبالحق وبالحب وبالجمال وبالحياة جميعا

أقول اذا كنا نحن بأنفسنا دعاة انحطاطنا ومعاول هدمنا ، فنحن أيضا بأنفسنا يمكننا — لو شئنا — أن نرفع (حيويتنا) وأن نخلق من أرضنا جنات نحج اليها ونحتمى بها ، ونجد فيها أنفسنا ، ونغذي فيها عقولنا وقلوبنا وأرواحنا ، فتغترف عيوننا النور وتستمتع قلوبنا وأرواحنا بما في الوجود من حب وجمال ومن سحر وفتنة

وابداع واعجاز ، وتفيض عن عقول خالقة محققة ، وعن رجال ونساء يشعون الحكمة والقوة والجمال فى الارض جميعا !

ونعود الآن الى ريفنا الساجي السادر الفقير ، والى حقوله الصامتة الساكنة الخيرة ، والى شمسه الوفية الدافئة ، والى بداوته القانعة الراضية فى ظلال الدعة والسكون ، وفي آثار ومخلفات الأجيال الغابرة والعصور الدابرة

ما أجمل تحية الشمس لأبناء الريف ! وما أجلّها حين تطلع من خدرها وتتلفت من حولها ، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها وبسلطان دولتها على القلوب ، تصحو من نومها وتنهض من سريرها ، تتزيل أعضاؤها من فتور النوم ، ويتراخى جسمها ويتهدل من كسل الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة ، تظهر على عيونها الدعج الناعسة الفاترة ، والنائمة اليقظة ، والمتبلدة النشطة ، وعلى جفونها الخامدة الساكرة ، وفي نظراتها المتكسرة الحائرة الحيية !

ما أجملها حين تتسلل من مطلعها على أبناء الريف من وراء الأبنية الواطئة البادية البسيطة الفقيرة ، ومن خلال أوراق الشجر وسعف النخيل وأغصان الصفصاف المتهدلة في الترع الساجية ، ومن وراء الحقول المحسنة الخضراء ، والقباب البارزة بين الدور في القرية ، وابراج الحمام العالية فتنعكس على الماء الجاري فى القنوات وفي الترع ، وعلى سنابل الزرع الأخضر وأعواد الأذرة الجميلة الجليلة فى خضرتها وفي خيرها وفي زهوها ، وعلى وجوه الريفيات

الجميلات حاملات جراتهن المتمايلة المستهترة المتكبرة بمرح ونشاط ، في تيه وعجب وتدلل ، نعم ! ما أبهى طلوع الشمس على وجوه الجميلات في الريف مبكرات في أعمالهن خفيفات الى تحية الشمس الخيرة مصدر الدفء ومبعث الحياة .

جميل جداً ذلك السرب من النساء الريفيات ماشيات على شواطيء الترع يخطرن فى زهو وفي نشاط ، مبتسمات فى غير كلفة ولا صنعة ، مطمئنات الى حياتهن البسيطة الخشنة ، غارقات فى نعيم الجهالة المظلمة ، خارجات مع الشمس الساطعة يحيين معها الا له العظيم فى ملكوته وفي صنعه وفى ابداعه ، وكم في الريف الساجي الهادىء من حسان ذهب جمالهن بين ضنك الفقر وأوجاع الأسى ، وبين أغوار الاهمال وظلام الجهالة ، واختبأن بين القرى والكفور بعيدات عن عوالم النور وعن معارض الجمال وملاعب السحر !!

وياما أجل منظر الفلاح المصري النشط خارجا مع الشمس الى حقله وعمله يقود أمامه ماشيته واغنامه آلة خيره وبركته ، ويجر محراثه الخشبي البسيط الذي تغير وجه الارض وتطور كل من عليها ، ولا يزال هو هو فى بداوته وفي بساطته كأنه يهزأ من تلك المدنية ومخترعاتها وخيراتها !

يخرج ذلك الفلاح النشط مبكرا من داره حاملا على كتفه فأسه وغلقه وأمامه ماشيته ، غير مدخر لنفسه راحة ولو قليلة من عناء العمل ، ممتلئا بوفرة النشاط وبحب العمل وبالشعور بالواجب

الذي هو أساس كل الأخلاق جميعا كما يقول (كانت) ، واشهد الله أنه قلما يوجد من كل صنوف الفلاح في العالم مثل الفلاح المصري نشاطا وجلداً وصبرا على الكدح والعمل ، وتحملا للبؤس وللكد وللألم ، فهو في الحق (فخر مصر وسيدها)

أول ما تشهد في الريف إذا ما تسللت أشعة الشمس من بين أوراق الشجر ووراء القباب والدور المتواضعة جماعات الفلاحين : هذا يحمل محراثه ، وذاك فأسه ، وآخر يسحب ماشيته ، وآخر اغنامه أو جمله ، وجمعا عديدا من الاطفال الصغار الذين خلقوا من الارض ليعيشوا على الارض وليموتوا فى الارض دون أن يعرفوا غيرها عالما أو وجوداً ، يخرجون الى الحقول والغيطان ، ويعلمون الفلاحة والزراعة ولما يشبو عن الطوق ، ولما تحتمل أبدانهم آلام الكد وارهاق العمل ، حاملين معهم غذاءهم هم وآباؤهم فى مناديل أو فى أسبات من الخوص ، وسربا منتظما من النساء تارة ومنتثراً أخرى ، ما بين حاملات جراتهن من الترع ، أو خارجات مع أزواجهن الى الحقول يشاركنهم فى تلقيط أذرة أو جنى قطن أو حصاد قمح أو نقل سباخ أو حمل ردم أو ري زرع

هذا المشهد الجميل من النشاط المفرح الفاخر المتسرب في الرجال والنساء معاً والأطفال أيضا ، هو أول ما تشهده في الريف وتحدث نفسك عنه حديث الأعجاب بل الافراط في الأعجاب ، لأنك تشهد فيه روح الشعور بالواجب والأيمان بالعمل وبالحياة ،

في تلك الطبقة الجاهلة البسيطة النشطة العاملة التي تدر الخير على البلاد لبناً وعسلا ، ولكننا نجهلها ونزدريها صلفا وعتواً ، قتل الانسان ما أجحده وأكفره !!

هذا الشعور بالواجب الذي تشهده فى الفلاح هو خير ما فى الريف ، ويا ليتنا جميعاً نشعر بهذا الشعور ! إذن لتغير وجه تاريخنا ، وإذن لأصبحت الأمة كلها فرداً واحداً يشعر بشعور واحد ويخضع لقانون واحد : هو قانون الواجب لأنه واجب ، ياليتنا نعمل كأن كل عمل من أعمالنا — كما يقول « كانت » — سيصير قانوناً عاماً ، يا ليت كل فرد منا يقوم بواجبه في حدود وظيفته ومواهبه واستعداده ، إذن لأنتجت هذه الجهود الفردية المنظمة خصبا وحياة وقدرة ونوراً ! ! !

واذا خرج الفلاح الى حقله فى الصباح خلع ملابسه هناك ليستعد للعمل المجهد ، فتراه واقفا فى غيطه أماما باحثا مفتقدا مسارب الماء ليروي زرعه ، مجتهداً في أن يزيل كل عائق أمام الماء ليجري خالصا حراً فى القنوات الضيقة ، وأما جالساعلى نورجه في (الجرن) يدرس قمحه او برسيمه أو فوله ، وفى أي وقت ؟ في ساعة الظهيرة حيث لا ترحم الشمس أحداً ! ومع ذلك تراه حافي القدمين عاري الرأس ، متحملا حرارة الشمس بجلد كريم وصبر جميل غير ناقم على هذا الوجود ونظامه الذي يضطره أن يسلك في سبيل العيش والحياة هذه المسالك الخشنة الوعرة ، بل مستمرئا كل هذا الجهد

وهذا الألم فى سبيل أن يحيا وأن يعول أولاده المساكين !

وفي الوقت الذي أراد القضاء الاعلى ان ينام فيه ناس ويتقلبوا على الدمقس المفتل والاسرة الناعمة المزازة والوسادات الحريرية الرخصة .

فى هذا الوقت يجلس فيه صاحبنا الفلاح على نورجه هذا هو وماشيته الامينة الوفية ، تحت نار الشمس ووهجها وسفع التراب ، ليغذي العالم بخيرات غرسه وبركات زرعه ، وليحييهم من عرقه ومن شبابه ومن قلبه ودمه بل من حياته جميعا .

تراه فى حقله مشمرا عن ساعديه بجد ونشاط ومرح حاملا فأسه يفلح بها الارض ويضرب بها بين الحشائش لينقذ زرعه من شرها ، منحنيا بظهره لا يرفعه الا ليأخذ نصيبه من الراحة ولو قليلا ، ممسكا بمحراثه الخشبي العريق في القدم يشق به الأرض شقا ويقلب عاليها سافلها ، أو يحمل الردم والسباخ لاولاده الصغار الذين يشاركونه في عمله ويقاسمونه تعبه وهموم عيشه ، ويظل في عمله هذا حتى اذا حان الغداء حملت اليه امرأته سلة من الخوص بها بضع ارغفة من الأذرة او الحلبة ،ومعها قطعة من الجبن او جانب من المش والبصل أو (المخلل) أو العسل الاسود او اللبن الرائب ، وهذا هو غذاؤه معظم الايام ان لم يكن كلها ، ولكنه قانع بعيشه راض بهمومه على خشونته وبساطته .

واذا ما آذنت الشمس بالمغيب والتهب قرصها وراء الاشجار

وبين دكنة السحب ، عاد صاحبنا من عمله ومعه ماشيته وآلاته ، وعلى وجهه ابتسامة الرضي والبشر ، وجلال الايمان وخشوعه ، يجري في عروقه دم النشاط حاراً دافقا كأنه لم يعمل شيئًا فى نهاره يظلم هذه الابتسامة أو يغضن هذا الوجه الباسم الراضى ، وكأنه بذلك عاهد اخته الشمس على ألا يخرج الى عمله ألا معها مشرقة ، ولا يعود من عمله الا معها غاربة ، وفاء دونه أي وفاء ، من الفلاح لشمس الفلاح !

ولكن هذا الفلاح الهادىء الباسم في غيطه وعمله ، تراه يفور فائره اذا علم أن دور الماء أتى واعتدى عليه غيره ، بحيث يعوقه عن ري زرعه ، واحياء خلاصة لحمه ودمه وحياته جميعا ، هنا تختبيء نفسه الطيبة الهادئة الوديعة الى حين ، وتظهر نفسه الشرسة الباطشة ، يحاول أن يمنع هذا المعتدي على الماء ، فان أبى فليس أيسر لديه للبطش به من (النبوت) يشج به رأسه أو يهشم أضالعه ، حتى لو استحكمت الحلقات وضاقت به آلات البطش والضرب ، فألى الفأس يقضي بها عليه ، فالماء حياة زرعه وزرعه حياته هو !

ندع الفلاح الآن قليلا ونعود الى شمس الريف الجميلة ثانية ، فلقد شاهدناها مشرقة باسمة جميلة ، فى يقظتها وفي مطالعها ، وفي فتنتها وفي بهرها ، بين ضباب الفجر وبلل الندي ، وروح الازهار والرياحين ، فلنشاهدها غاربة باسمة أيضا ، ولنقف أمامها نقدم

فروض التقديس والعبادة والخشوع ، لخالق هذا الكون العظيم فى سعته ، العظيم في سره ، العظيم في صمته وفي افصاحه وبيانه

شمس الريف الجميلة الجليلة العظيمة ، معبود اجدادنا في اعماق القدم وطفولة الزمن ، يعبدون فيها الدفء والحرارة والحياة والقوة والخير جميعاً ، هذا المعبود العظيم للفراعنة العظام ، وهذه « القوة » العظمى المقدسة ، لأولى الجبروت والقوة والقداسة

هذه الشمس الجميلة المهيبة المقدسة ، لن تراها جميلة حسناء فاتنة جليلة ساحرة في خير من الريف ! ما أجملها وما أجلها حين تتوارى فى صفحة السماء الزرقاء ، فاذا بالزرقة حمرة ، واذا بالحمرة جمال وجلال وفتنة وقداسة وعبادة ، وما شئت من فنون السحر والبهر ! ما أجملها حين يتلهب قرصها الاحمر الوردي فى أتون السحب المتقطعة المتناثرة اللاهية ، في قتام مهيب حينا ، وفي نور جليل نقي حيناً آخر ، فى هذه الحمرة الوردية أو هذه النار البرتقالية ، يتمثل قداسة الماضي وطفولته وقدمه ، وعظمة الحاضر وقوته ونشاطه ، وآمال المستقبل وأحلامه وأسراره ، وفي هذه الصور من القداسة والجلال والعبادة ، لآلهة الدفء والحرارة والحياة ، وفى هذا الماضي والحاضر والمستقبل ، تتجلى « وحدة الوجود » ، ويبرز « الكل الاعظم » متآلفاً متآخيا مع (الجزء الصغير) ، مع العضو (المنفعل) أو مع القوة (السالبة)

يعود مع الشمس كما خرج معها جماعات الفلاحين بما شيتهم من

ابقار وجاموس، وبحميرهم، وبأغنامهم وبكلابهم أيضا، وبصغارهم راكبين الحمير أو على ظهور الجاموس، وكم هو جميل صوت الفلاح !، صوت تتمثل فيه الطمأنينة النفسية والرضى والقناعة، وهو عائد من عمله ساعة الغروب يسلي نفسه بتلك الاغانى الريفية الجميلة في براءتها وسذاجتها !

هذه الحركة الحية الشاملة كل نواحي القرية نهارا، وهذه الجموع العديدة من الرجال والنساء والاطفال، لا تلبث كلها أن تهدأ بعد الغروب وتسكن الى الدور تستجم فيها من العناء، وتجد فيها الدعة والراحة والسكون، فلا تعود تسمع صوتا ولا جلبة، ولا نهيق الحمير ولا غثاء البقر الذي كنت تسمعه في النهار، فالآن ساد السكون، وتسلم الليل زمام الحكم، وعم الظلام الداجي الرهيب وهدأت الحركة، وسكن الزوج الى زوجه وأولاده يجد لديهم راحته من عمله وهناءة عيشه وسلوى همومه وتعبه، وأين يجد الآباء هناءة العيش ورفهه، في خير من عناية الزوجات وعبث الأبناء ولهو الأطفال !!

لعل خير ما فى ريفنا هدوءه وسكونه ! فهذه القرية التي كانت مظهر نشاط شامل، ومعمل حركة دائمة وحياة دافقة، قد خيم عليها الهدوء وعلتها رهبة الصمت البليغ وخشوع السكون المهيب، وسكن الناس الى ديارهم الفقيرة فى ذلك الليل الرهيب رهبة الموت وفزعه، ويا ما أرهب الليـل في الريف ! سكون تام عن الحركة،

ونوم كأنه موت ، أو موت كأنه نوم ، أو صلاة صامتة وتسبيحة دائمة ، وعبادة خاشعة ساكنة ، وفناء الوجود كله في آله الوجود وخالق الكون ورب السموات والأرض ، فناء حي بطيء مستمر ، قوي فى ضعفه ، سريع فى ريثه وبطئه ، شاعر في خموده وسكرته ، عالم في جهله ، متعبد فى صمته !

فى هذا الصمت الخاشع لم تعد تسمع صياح الأولاد في الغيطان ولا صوت (الفرقلة) يضرب بها الفلاح بقرته أو جاموسته ، ولا يقرع أذنك صوت الحمير المنكر ، ولا غثاء الجاموس والبقر ، ولا صياح البط والأوز في الترع ، ولا شجار جماعات الفلاحين ولا مشائمة النساء لسبب ولغير ما سبب ، فكل هذا قد هدأ الى حين بين بطون الليل وغياهبه ، واستكن في ظلمائه ودكنته ، واطمأن الناس الى الحياة هادئة راضية وديعة آمنة في سواد الليل ، بعد ان أصابهم الجهد ونال منهم اللغوب في بياض النهار ، وعدت لا تسمع حفيف أوراق الشجر ولا هسيسه ، يلاعبها الهواء وتعبث بها أشعة الشمس اللاهية ، ولكن عم السكون كل شيء ، ونام كل شيء عن الحركة ، وباتت القرية ساكنة هادئة في ظلمة الليل الرهيب متهجدة متعبدة قانتة ، تحمد الله على ان حبا أهلها فيض الزرع والخير ونعمة العافيه وسعادة الطمأنينه والرضى ، ومتى تحلو العبادة وترفع الأدعية خالصة طاهرة فى خير من رهبة الليل وظلمته ؟ ومتى يناجي الآله وتصعد اليه الشكايات والآلام والجراحات فى خير من نوم

الطبيعة والفناء الحي للوجود ؟ وأين يكون الليل أشد رهبة وأبلغ صمتاً وأكثر وحشة منه في الريف ؟

هذا فلاح مسكين شقي ، جلس الى مصلاه المتواضعة المفروشة بالقش وبأعواد البردي وبالحصير البالي . على حافة الترعة ، في سكون الليل ورهبته وفي نوم الوجود وغفوته ؛ يقدم لربه فروض العبادة والخشوع ، ويسأله أن يفرج كربه وأن يجيب سؤله وأن يشفي مريضه ، وهذه امرأة مات زوجها عن أطفال صغار لم يعرفوا بعد غدر الزمن ولا هموم العيش ولا جهاد الحياة ، ترفع أكفها ضارعة الى الله ملاذ البائسين ورب الشاكين السائلين ، أن يكنف هؤلاء الصغار برحمته وعنايته ويجود عليهم بمنه وفضله ، وأن يبسط لهم من الرزق والخير ، فهي أعجز من أن تعولهم وأفقر من أن تقوم بعيشهم ، وهو تعالى أكرم مسئول !

وهذا فلاح آخر جلس أمام داره بعد ان نام أطفاله ، وبعد ان سجى الليل وابتدأت القرية فى صلاتها وعبادتها ، يسأل الله بصوت يقطعه ذلة البؤس وتخنقه عبرات الأسى وأوجاع الشقاوة ، أن يمكنه من تسديد ديونه لمالكه الذي لا يرحمه ، وأن يرفع ثمن القطن هذا العام حتى يتيسر عيشه وحتى يمكنه أن يكسو أولاده وزوجه من عريهم ، وأن يبارك له فى محصوله ليعوض بذلك من محصول العام الماضي ، حيث خانه الحظ وعاكسه القدر واستبد به المالك !

في هذا الهدوء الشامل الرهيب ، وفي هذه الصلاة الخاشعة

الصامتة ، تسمع صوت المؤذن في المصلى يؤذن بصلاة العشاء فتعروك هزة الأيمان وعلاك عليك كل قواك وكل وجودك قداسة العبادة وجلالة الخشوع ، فترهف بأذنك مع القرية الهادئة الساكنة ومع النبت النائم المتعبد ، ومع أوراق الشجر الناعسة المسبحة القانتة المرتلة ، ولا يسعك إلا أن تستسلم ، وإلا أن تندمج وتتحد مع هذه « العابدات » ، والا أن تشاركها في صلاتها وفي تراتيلها ، والا أن تفنى معها في فناء الوجود كله في ذات الله العليا المقدسة !

يسلمك هذا الصوت الخاشع الجميل وهذه الصلاة الدائمة وهذا الفناء الحي الى الذكريات العديدة ، فتذكر نفسك وتذكر علاقتك بربك وواجباتك اليه ، وتقودك هذه الذكريات الى أن ترفع رأسك وتحدق في السماء وتجتلي جلالها مزدانة بالنجوم المبثوثة المتألقة في صفحة السماء الدكناء في ذلك السواد الرهيب ، فتفكر فى نفسك وفى وجودك ، وفي هذا الكون اللانهائي العظيم الذي تعجز عن ادراكه وفهمه عقولنا ومداركنا وكل ملكاتنا ، ومع ذلك يدعونا الغرور والكبرياء الانسانى الى أن نظن أن عقولنا قادرة على ادراك كل شيء وتحقيقه ، وأن مشاعرنا فى مكنتها أن تحس وتشعر بكل مافي الوجود والكون ، وفي الحق أننا لا نفهم قليلا ولا كثيراً حقيقة من حقائق هذه الوجود فهما حقاً صادقاً يمكننا أن نطمئن اليه ونقتنع به ، فما يدرينا أن هذا حق وما يدرينا أن هذا الذي نسميه

« عقلا » قد لا يزيد معرفتنا تذبذبا وهدوءنا قلقا ويقيننا شكا ، وما يدرينا أن حكمه صحيح أو خطأ ، سليم أو سقيم ؟

يقول أناتول فرانس : « كل ما خطر ببالك فالكون بخلاف ذلك » فاذا كان هذا حقاً ، فبماذا ندرك هذا الكون ونفهم هذا الوجود اذا كنا لا نطمئن لا الى حكم العقل ولا الى شعور القلب ؟ أهكذا قضى علينا بأن نعيش مشردين ملفوظين أمام هذا الباب القدسي الموصد أمامنا ، محرومين معرفة الوجود الذي نعيش فيه والنور الذي نراه ، غرباء حتى عن « أنفسنا » ؟ ؟

أهكذا قضى علينا أن نصرخ ونهتف مع المعري حين استحكمت عليه حلقات الحيرة وحفزه التشوف الى المعرفة فصرخ صرخة من اللحم والدم ، من نسيج الأسى وذلة الضراعة

جهلنـــا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا والعـــلم لله ذى المن

الى أن قال

طلبت يقينا من جهينة عنهم
ولم تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائلا
فاني لم اعط الصحيح فأستغني

أين عقولنا ومداركنا وقلوبنا من هذا الملكوت الواسع وذلك العالم الكوني اللانهائي العظيم ؟ ماهذا الكون ؟ وما كنهه ؟ وما

غايته ؟ وما مداه ؟ ومن نحن في هذه العوالم الكونية الواسعة العديدة؟ وماذا وراء هذه السماء وهذه النجوم ؟ ماذا تحت هذه الارض ؟ وماذا عند هذه الكواكب ؟ وماذا وراء هذه الحياة ؟ الموت ؟ وما الموت ؟ وماذا بعده ؟ ولماذا ؟ وما لون هذه الحياة الاخرى الموعودة ؟ وما صلتها بحياتنا الاولى ؟ واذا كان الموت هو خاتمة حياتنا الاولى فما هي خاتمة حياتنا الثانية ؟ وما البعث ؟ وما الحقيقة؟ وما الوجود ؟ وأين ينتهي ؟ ومن نحن ؟ وماذا كنا ومن أين أتينا والى أين نذهب ؟ وماذا كان الوجود وماذا كانت الحياة ؟ وماذا يراد بنا ؟ وما غايتنا من حياتنا ! وماذا نعرف ؟ لا شيء !

تلك وجوه اسئلة قد تمر بخواطرنا اذا رفعنا رءوسنا الى السماء نجتلي سرها ونفكر في جلالها وعظمتها ورهبتها ، ولسنا نملك في هذه الحياة الا أن نسأل والا أن ننادي ، فنحن نناديه تعالى كما يقول لامارتين — وان لم يسمع ، فأن عظمتنا فى أن ندعو وعظمته في ألا يجيب »

الى أي حد نصدق العقل ونقبل حكمه راضين مطمئنين ؟ وترى ماذا يحل لنا مشكلة الوجود وسر الخليقة ومسألة المسائل : هل هو العقل ؟ هل هو القلب ؟ هل هو الايحاء ؟ هل هي الغريزة ؟ هل هو الالهام ؟ هل هو الكشف أو الوجد ؟ وبماذا نعرف « السر ؟ بماذا نفهم « المجهول » ؟ هل بالحب كما يقول « تاجور » والمتصوفة ؟ أو هل بالعلم ؟ أو بماذا ؟ أو ترى أن « المعرفة » ليست

من حقوق الانسان او اختصاصاته في هذه الحياة ؟ لعل هذا هو الأقرب الي الحقيقة الضائعة « المجهولة » !

لقد نقد « كانت » العقل البشري في كتابه (نقد العقل المجرد) وأظهر أنه لا يعيننا على المعرفة ولا يساعدنا على الوصول الى الحقيقة وأنه معرض للخطأ فى حكمه وأنه لا يرينا الا صورة الحقائق لا كنهها وانه لا يجدر بنا ان نتلقي حكمه بالقبول الأعمي وبالاستسلام المطلق ، واستنقصه أيضا « برجسون » في كتابه (التطور الخالق) وبين فيه ان عقولنا وحدها عاجزة كل العجز عن استظهار حقائق الحياة وفهم الكون فهما يرضينا ويقنعنا ، وأننا لكى نفهم الحياة و نستقريها فهما كاملا واستقراء مرضيا ، يجب ان يكون فينا « اللاوعي » النبات وغريزة الحيوان وبصيرة الانسان !

هذا ولا يزال استنقاص العقل كمعيار ثابت للحكم على الاشياء وللوصول الى الحقائق سمة هذه العصور او هذا العصر الذى تزعزع فيه الثقة بكل شيء لا يتفق و نظرية التطور الذي هو سنة الحياة ، هذا العصر الذي اصبح لا يعني الا بالواقع المحسوس والذي اخذت تتزعزع فيه الثقة بالعلم وبما أخرج للناس كهاد يهدينا جميعا الى ادراك اسرار الانسانية والى فهم الوجود والى علاقة الجزء بالكل والفرد بالوجود وبخالقه الاعظم ! وغاية آمالنا أن يهتدى هذا العالم الجديد الى النور الذي يكشف له ما خفى من حقائق الوجود وما استبهم من اسرار الكون ، وان يكون نورا ينير العقل ويرضي القلب ويقنع

الروح ، نورا ينقذ الانسانية من هذا الظلام الروحي الذي تتخبط في غياهبه ومن هذا الأسر الذي تعيش فيه ، حتى تؤتي آثارها وتنتج ثمارها فى ظلال الدعة والطمأنينة واليقين والسلام والحب والخير والايمان

واذا ما أخذ الليل الساجي يحسر استاره ويرفع نقابه ، وانبلج نور القمر يتحلب بين اشجار السنط والصفصاف والكافور ، استيقظ الفلاح من نومه على صوت المؤذن يدعوه الى الصلاة قبل ان تطلع الشمس على العباد تحييهم تحية الصباح السعيد ، واشتركت ديكة الصباح في الدعوة الى اليقظة والى الصلاة ، وما أجملها تقف على اسطحة الدور بأعناقها الطويلة وريشها الجميل توقظ الفلاحين من رقادهم وتحثهم على القيام بواجباتهم والصلوات لربهم ! وفاء للفلاح أى وفاء حتى من الديكة ! وكم يكون جليلا خاشعا رهيبا نداء المؤذن : الله اكبر ! والناس نيام والطبيعة كلها متعبدة قانتة ناعسة يقظة !

الله اكبر ! الله اكبر ! الله اكبر ! الله اكبر في جلاله وعظمته ، الله اكبر في خلقه وابداعه ، الله اكبر في رحمته وغفرانه ، الله اكبر في نعمه واحسانه ! هنا يغمر النفس خشوع الرهبة وجلالة الايمان وقداسة الدين ، هنا تتحد النفس مع الله وتفنى فيه

إتحاد حب ومعرفة وولاء ، هنا امام هذه الكلمة المقدسة العظمى الجليلة الرهيبة الجامعة ، وامام هذه الطبيعة الشاعرة الناطقة في صمتها

وفى كلامها وفي حركتها وفي سكونها بعظمة الله وبجلال السكون وفسحة الوجود ، هنا تنطوى « النفس » وتنحنى لتفنى في الله وتندمج في الطبيعة وتجد « نفسها » وتشعر « بذاتها » وتخرج من « الافيديا » (AVIDYA) من هذا الجهل بالشعور بالنفس كما يقول « تاجور » ، الى النور والى الحب والحق ، هنا تهتف النفس صائحة فرحة باسم الله وتدع من مثل « داروين » رجلا مؤمنا وتضطره أن يصيح وان يهتف : يستحيل على العقل الرشيد ان يمر به خلجة من الشك في ان هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغات وتلك الانفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء لان العماء لا يخلق نظاما ولا يبدع حكمة ، وذلك اكبر برهان عندي يقوم على وجود الله» هنا تنهزم العدمية (النهيليزم) ويتبدد الالحاد ويعلو الحق والايمان !!!

لقد انسيت أن اذكر حين تحدثت عن الفلاح أن اخلص وأوفى صديق اليه هو كلبه ، فهو في الليل اما ان يأخذ مقعده على سقف الدار واما امام بابها ، ولا تغفل عينه عن حركة يشعر بها ولو هسيسا ، فأن رأي ولو طيفا أو خيالا ولو لم يكن في حارته فضحه بالنباح العالي ، ثم تسرى عدوى النباح فتغدو القرية كلها نباحا وصياحا ، وفى النهار يخرج مع المواشي أو مع الاغنام ولا يعود الامعها ، واذا حدث ان اعتدى على سيده احد دافعه عنها الكلب قدر جهده واستطاعته ولو تذهب في سبيل الذود عنها وعن صاحبه حياته ولو يخترم الرصاص قلبه أو يمزق جسمه !

فأين وفاء الانسان من وفاء الكلب ؟ وأين غروره وصلفه من شجاعة الكلب وتواضعه ؟ وأين غدره وخيانته من اخلاص الكلب وأمانته ؟ فاذا ذكرت وفاء الكلب لصاحبه فى الريف قادتنى الذكرى وسرى بى الخيال والخاطر الى كلب « لا مارتين » وكيف خاطبه ولاطفه وتحبب اليه حين قال له : « ان كنت أيها الكلب راقداً فى مواطيء النعال فلا أذكر ان قدمي مستك يوما ما احتقارا ، كما اني لا أذكر اني زجرتك يوما بكلمة تجرح حنانك وشفقتك » .

وليس كلب « لا مارتين » وحده هو الجدير بأن يأنس اليه صاحبه ويخاطبه ويجد لديه العزاء والسلوى عما فى الحياة من مكر وخديعة وكذب وغدر ، وليس « لا مارتين » وحده الذي تعوزه السلوى فيتفقدها عند الكلب وعند الحيوان جميعا ، وقد افتقدها عند الانسان النبيل الكريم حتي لم يعد يؤمن بصداقة ولا يعتقد في اخلاص ، بل كلنا « لا مارتين » ، بل كلنا نجد في حياتنا كل يو وكل لحظة غدر الأصدقاء وتنكرهم ساعة الشدة وتكالبهم ساعة الرخاء ، وكلنا نهتف مع المتنبي قائلين : « اذا عظم المطلوب قل المساعد » ونصرخ مع المعرى في صرخته المرة

ومن عاش بين الناس لم يخل من أذى

بما قال واش او تكلم حاسد

وكل منا رأى فى تجاربه الخاصة نكران الجميل ودناءة الأصل والخيانة من أعز الاصدقاء عليه وآثرهم لديه ، وكل منا هزأ وسخر

وشك شكا يكاد يكون انكارا لصداقة الانسان المزعومة ولوفائه الكاذب واخلاصه الاجوف ، وبحث عنها عند الحيوان الذي لا يعرف الكذب ولا الخداع ولا الزلفى ولا الرياء ، وأصبح كل منا تقريبا « لا مارتين » نجلس الى كلابنا والى قططنا الصغيرة الجميلة البريئة نستدفىء لديها بحرارة الوفاء ، ونجد فيها جميل السلوى وحسن العزاء ، وبماذا نعزى نفوسنا في هذه الحياة الطويلة أمام هذه الضروب المختلفة من غدر الاصدقاء وتنكرهم وكيدهم ، ومن خصومة الاعداء وانتقامهم ومن عداوة الزمن وقسوته ، بماذ نرفه عن نفوسنا المعناة وقلوبنا التي طفحت بالغضب وبالسخط وبألوان الهموم وصنوف الأسى ، اذا لم يكن بكلب نلاعبه ونخاطبه ونعلس عليه ونصاحبه ونماشيه ، أو بقطة صغيرة نضعها على ركبتنا ونعبث بشعرها الناعم الجميل ونشاكسها ونلهو بها ، ونجد لديها راحة الجهد وجمال العبث وحسن السلوى وخير البر والوفاء ؟ !

لا أريد ان اترك هذا الفصل قبل أن اقول كلمة عن « حياة اللهو » في الريف ، وفاء للعهد مع القارىء الكريم ان نصور له حياة الريف المصري تصويراً ان لم يكن صادقا كله فهو قريب من الحق والصدق ، وهذه هي بغيتنا وقصدنا من هذه « الأحاديث » او هذه الرسالة : محاولة متواضعة لتصوير ريفنا وفلاحنا للبيئة المدنية التي تجهله ويجهلها

وماذا تتصور أن تكون حياة اللهو في ريفنا المصري السادر

الساكن الذي تنقصه « الحياة » والحركة ، المحروم من كل وسائل الاستمتاع بالوجود استمتاعاً عرفها مرضياً؟ لقد ذكرت لك أن « أوساط الجمال الحي » في ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافي لقلوب طامحة وعقول خالقة محققة ونفوس أبية كريمة كبيرة ، وان معنى « الحياة » عندنا يقدر بمقدار ما تدر علينا الحياة من أرزاق ومنافع وحاجات ورغبات وشهوات ، أما الغاية من الحياة لأنها « حياة » ، أما أنها وسيلة وغاية ومثل أعلى فلا نعنى بهذا قليلا ولا كثيرا ، واذا كنا نفهم الحياة هذ الفهم وننظر اليها بهذا المنظار فقلما نعنى بالبحث عن وسائل الاستمتاع بها استمتاعا يغذي قلوبنا وأرواحنا ويرضي طموحنا وكبرياءنا وآمالنا وقلما نفكر في العناية باللهو والعبث والسلوى وخاصة « بثقافة الجمال » و « برسالة الحب » ونحن بذلك انما نعطل ملكاتنا ووظائف أعضائنا التي حباها الله لنا ووهبنا إياها لنستخدمها في وظائفها ولنستمتع بما خلقت من أجله ونحن بذلك نوحش من حياتنا ونضيق من فسحاتها ونحقر من قدرها ، ثم نشكو منها ونتألم لأنها لا ترضى رغائبنا ولا تجيب حاجاتنا ، ولو انصفنا لشكونا أنفسنا وأنحينا باللائمة والتقصير على عقولنا التي نقيدها بالتعصب والعماية والتقليد ، وعلى قلوبنا التي نغلقها ونظلمها بالجهل والافراط والاسراف في المجون والعبث ، وعلى أرواحنا التي نأسرها بالكسل وبالتراخي وبالهمود ، ثم نتذمر ونلعن نظام الوجود الجائر لأنه لم يجعلنا في عداد السعداء المترفين الرافهين العلماء النابغين

ونصخب ونثور ونكتئب ونحقد ونحزن ونبكى ، ولو كنا قضاة عادلين لشكوناو صخبنا وتألمنا من انفسنا،من بعض أغنيائنا أرباب الأرض والطين وأصحاب المنازل والقصور والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة المكتنزة فى طيات الورق وتحت الوسائد وأحجار البلاط،الذين خلقوا فألفوا انفسهم اغنياء عن آبائهم وأجدادهم فى تلك العصور السود ، عصور الاقطاعية والجبروت والاستعباد ، ثم شراء متع النفوس وحاجات القلوب بالضياع وبالقصور وبالفدادين ، فلم يتذوقوا ألم الفاقة ولا أوجاع الأسى ولاهموم العيش ولا ذلة السؤال ، ولم تخمص بطونهم من الجوع أو تنحل اجسامهم وتستحل ألوانهم من كثرة الشكوى والحاف الرجاء وطلب العون ، ولم تهطل من عيونهم يوما دمعة البؤس ممتزجة بدم الوجيعة وجراح الفقر ، فليس بغريب أن تصم آذانهم أمام شكايات البائسين وأوجاع المحتاجين ، وان تغلق قلوبهم المتحجرة أمام أصوات السائلين وصرخات المعوزين ، وليس بعجيب أن يتصاموا عن استماع صوت «الاصلاح» لأنه لا يعنيهم أصحاب الطين والقصور بل يعنى هؤلاء المساكين الفقراء « عبيد » هؤلاء « الأسياد » في عصر زالت فيه العبودية والسيادة ، وهذا الصنف من الأغنياء الأشحاء الجامدين في مصر يذكرنا بقول صاحبنا « روسو » عن أغنياء فرنسا،قال « لم يكادوا يذوقون لذة الأمارة حتى احتقروا غيرهم وحتى أصبحوا لا يفكرون فى شيء إلا اخضاع الناس واسترقاقهم ، مثل الذئاب المتوحشة التي

لا تكاد تذوق طعم دم الأنسان حتى ترفض أي طعام آخر ولا تتلذذ إلا اذا شربت منه»

ولست أدري ما الذي قدمه هذا الصنف من الأغنياء الى بلادهم التي أثروا من أرضها وابتنوا قصورهم تحت سمائها، وملأوا بطونهم وجيوبهم من ثمارها وخيراتها ، ماذا غير تصعر الخدود وانتفاخ الوجوه ، وهز الأكتاف وايماءة الرءوس والحديث بالأشارات ، والتلوي والتقطع في الكلمات ، والخطاب بالأنوف والنظر بالأقدام والركل بالأرجل ، ثم طي الأرض والشوارع بالسيارات واللهو بالماجنات الغانيات ، وبذر الأموال على الموائد الخضراء وقضاء ثلثي العام كله في الغرب بين الأندية ودور المجانة ومصايد النساء ؟

هنا يحضرني قول « روسو » وصرخته العالية المرة حين أذكر وأنا أتألم هذا الصنف من الأغنياء الذي ابغيه وأتصوره حين أكتب هذه السطور ، وهو صنف معروف بيننا جميعاً يكاد لا يشعر بشعورنا ولا يتألم لآلامنا ، ويكف يده عنا حين يجب أن يبسطها ، ويوصد أبواب أمواله المكتنزة أمام صيحاتنا وشكاياتنا في كل خطوات اصلاحنا حين يجب أن يفتحها، قال « روسو » : « ماذا صنعت العائلات التى تسمى شريفة لمجد وطنها أو لسعادة بنى الانسان؟ وماذا انتجت في أكثر البلاد التي سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت عدوة للقوانين وللحرية وإلا ان أعانت الاستبداد وظلم الشعوب ؟ »

نعم ! يؤلمنـا جداً أن يكون بعض أغنيائنا على هذه الحال فلا يألمون لآلامنا ولا يشعرون بشعورنا ، يؤلمنا أن ينحوا أنفسهم عن الميدان وعن العمل وعن عملية الانشاء والبناء والاصلاح ، فكأنهم ليسوا منا ولسنا منهم ، وكأن مصر هي وطننا وحدنا أو وطنهم وحدهم لأنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » فيها كما أذيعت هذه العبارة في هذه السنين ، يؤلمنا أن يكون في أيديهم طب الداء وعلاج الحال ثم يقعدون ويتنحون ويبسمون ويسخرون !

نعم ! ان شكونا أحداً في كل ما نشعر به من بؤس وضنك واحتقار لمعنى « الحياة » وحرماننا من الاستمتاع بها وجهلنا « بثقافة الجمال » وتكاسلنا عن كل وجوه الاصلاح وتأخرنا عن الأمم التي تجري وتعدو ونحن نزحف ونحبو ، فأنما نشكو أولا هذا الصنف الجامد من أغنيائنا وثانياً حكوماتنا وذلك لأن مصالح البلاد تهم فئة « المحكومين » أكثر مما تهم فئة « الحاكمين » ، لأن المحكوم هو الذي يشعر بالالم وهو يفهم الفقر ويعرف الأسى ويقدر « الاصلاح » ، فعسانا نقبل على عصر جديد يشعر فيه أغنياؤنا بقيمة « الاصلاح » وبالحاجة الى العمل والاشتراك مع الأمة فى كل وجوه السعي والكد والبناء ، ويأخذون نصيبهم من الجد والنشاط وتقديم مواهبهم واستعدادهم وثروتهم لأصلاح هذا « الهيكل » المتهدم وتطبيب هذا « الجسم » المنهد من التعب والمرض ليقوى على الحياة ويصبر على التنازع على البقاء ويثبت فى

« الأنتخاب الطبيعي » ويشع القوة والعمل والخصب والخير جميعاً شرقا وغربا !

ونعود ثانية الى ريفنا ولهوه بعد ان أبعدنا عنه قليلالحضرات الاغنياء .

لسنا نعرف في القرى ما نعرف في المدن من الملاهي والنوادي للتمثيل وللهو وللمحاضرات والمناظرات ، أو مشارب للقهوة وما فيها أوملاعب للنرد والبليارد ، او مراقص للفتيان والفتيات ولمحبي الجمال وعشاق العبث ، ولسنا نعرف فيها دوراً للسينما ولا نوادي للرياضة ولا مكاتب لمحبي الأدب وعشاق الاطلاع ، ولسنا نرى فيها ما نرى في المدن من متنزهات ، ورياض وحدائق باسقة عاطرة بالورود والازاهير غاصة بمالكات الحسن ومالكات القلوب وزينة الحياة الدنيا ، ولسنا نسمع فيها ما نسمع في المدن من أصوات الكمنجة والعود والبيانو (والجازبند) !

يفارقنا كل ذلك اذا ما وطئت أقدامنا الريف المصري ، واذا كان ريفنا سا كنا ساذجا فقيراً من « الحياة » ومن الحركة فكذلك حياة اللهو فيه بسيطة بريئة لا تزال عليها مسحة البداوة الريفية ، لا تحركها بواعث « الحياه » بل هادئة ناعسة حالمة فى فى الماضي الدابر والعصر الغابر ، فلا يعرف الفلاحون من أدوات الموسيقى الا « الارغول » والمزمار والطبل البلدي و « السلامية » ، وقد يكون لهذه الموسيقى الريفية جمال ، بل في الحق لسنا ننكر

ما فيها من جمال يملك علينا قلوبنا وحواسنا حيناً ، بنبراتها الريفية البريئة العارية عن كل غموض وتعقيد وحلىّ ، الهادئة الساكنة المعتدلة الرقيقة كأبناء هذا الوادي المبارك الساجي الحالم ، ولو أنها خلو من المعانى السامية والالهامات العليا والتيارات الروحية النبيلة ، ولو أنها لا « تخلق » جديداً أو توقظ هامداً أو تبعث عاطفة ، لكن مع كل هذا لها جمالها الريفى الصامت البرىء العاري عن كل صبغة وتحسين ، نجنح اليه ونميل حينا ، ساعة تكون عواطفنا هائجة وملكاتنا الحاسة يقظة متعبة في العمل والحركة ، ساعة تكربنا هموم العيش والتفكير فى مصائب الحياة التي تنصب كل لحظة كأنها الغيث الهتون ، هنا تهمد عواطفنا الهائجة فانية في هذه الأنغام البريئة الرقيقة ، فننسى حينا مافي الحياة من وصب وضنك وشقاء !

الأرغول اذن (والسلامية) هما كل مايعرفه الفلاح من آلات الموسيقى ، وهو كثيراً مايحمل أرغوله أو مزماره ويترنم به فى الغيطان والحقول الساكنة الحالمة ليرفه عن نفسه عناء العمل ، وليهدهد بها اغنامه ، وهو لا يعرف من ضروب اللهو والسلوى وقضاء أوقات فراغه والاستمتاع بما في الحياة من لذة وجمال ، الا الجلوس على « المصطبة » أو على حافات الترع والجسور ، أو في الطريق يلعب « السيجة » بالأحجار في التراب ، والا « لعبة الحطب » وهي المضاربة أو المبارزة بالعصى الغليظة

ومع فقر حياة اللهو في الريف وبراءتها وبساطتها فقلما يزاولها الفلاح المصري ، لان مشاغل حياته كثيرة تشغله عن ان يأخذ نصيبه من الحياة الدنيا ، من اللذة ومن اللهو ، وكيف له ان يلتذ ويلهو وحياته بطبيعتها لا تكاد تنتهي من العمل طيلة النهار فهو من الغيط الى الدار !

وكم تراه فرحا مغتبطا تنفرج شفتاه عن ابتسامة السعادة والفرح والاستمتاع بالحياة يوم عرس في القرية أو يوم « المولد » أو موسم من المواسم او ليلة من « الليالي » ، هنا تجده يتكالب ويتهافت على مكان العرس او المولد او الليلة ليستمع الى مغن مشهور ، أو غير مشهور ، أو مرتل كبير أو صغير أو منشد فى حلقة الذكر ، فيأخذ مكانه بين المستمعين ليرفه عن نفسه ويبرد قلبه ويضيئه باسماع آيات كتاب الله الكريم ، أو قصائد مدح نبيه العظيم ، ثم تفجؤك بل تروعك هبته وصيحاته العاليات الصاخبات ، صيحات الاستحسان والاعجاب ، فيقفز من مكانه او يلقي بما على رأسه من « طاقية » أو « لبدة » في الأرض ، ثم يهرول الى المقرىء أو المغنى طالبا منه اعادة ما يقوله وينشده ، لأنه حرك هامد عواطفه ، وأيقظ نائم حواسه وأروى قلبه الصادي المغلق أمام منافذ الجمال والفتون واللذة .

واذا أردت أن تتحقق من « يوم » الفلاح فهو يوم الموالد للأولياء ، فتراه يبرح قريته ويتوجه الى مكان المولد مهما كان

بعيداً ومهما كانت الطرق اليه ملتوية عسرة ، وقد يسافر له خاصة ، وقد يقترض من أجله ليوزع على الغانيات الساقطات بعض ما يقترض ثمنا لابتسامة ماجنة فاسقة أو قبلة أمام الأنظار جميعاً من رجال ونساء وما الى القبلة من حاجات النفس الوضيعة السافلة ورغائبها الساقطة القذرة ، نفس لم تهذبها التربية ولم يشذبها المجتمع ، والبعض الآخر يشتري منه جانباً من « الحمص » أو « حب العزيز » أو « الحلاوة السمسمية » لزوجه وأولاده ولافراد عائلته من أقارب وأصهار ومن كل ذي نسب ورحم ، واذا ما وصل الى «التياترو» أو الى « السرك » بمعنى أدق ، عرضت عليه المهازل والمساخر التي تلائم عقليته المستعدة للهزل وللسخرية ، وهناك تقع عيناه على أشد المناظر فحشا وأنكرها فسوقا ومجانة ، وهو مع ذلك فرح مغتبط لأنها تلائم شهواته وترضي عواطفه وتشبع ميوله ، وهناك تعرض عليه رقصات البطن الماجنة الفاحشة من بنات الخلاعة والهوى الفاسق ، وهناك يلقى على سمعه وعلى سمع رجال الادارة أيضا أغان وأدوار كلها الفحش والفسق ، وكلها مما يحرض مباشرة وجهراً على هتك ستر الحياء وعلى الأغراق فى المجانة والفسوق وما اليهما ، ولا يبالي أصحاب هذه الملاهي أو هذه « الخوامير » بمعني أصح وأقرب الى الحق بوجود نساء بين الرجال يشهدن هـذه المناظر ويسمعن هذه الأغاني ، يشهدن رجلا يحتضن غانية ويبصرن غانية تتلوى وتهتز فى حركات تهيج العواطف وتوقظ الشهوات ، ويسمعن

أغاني تحرض تحريضا صريحا على ما ينزل بالنفس وبالاخلاق الى أحط ما يمكنها أن تنزل اليه ، ولـكن لماذا يبالون وهم يرون في عرض هذه المشاهد وهذه الأغاني رواجا لسوقهم وربحا أي ربح لتجارتهم؟ ولماذا يتحرجون وعواطف بعض النساء نفسها تريد ذلك وميولهن تميل الى هذه الأغاني الماجنة وتلك المشاهد المغرية ، وأن بذلن كل جهودهن ليخفين عواطفهن الباطنة وشعورهن الداخلي من تستر واصطناع الحياء وادعاء الخفر ؟

واذا عرفت ان فلاحنا يرقص طربا ويطير فرحاً لأبسط منظر من مناظر اللهو ، فلا يأخذك العجب لو رأيت رجال القرية ونساءها وأطفالها خرجوا جميعاً من دورهم مهرولين ليسمعوا ما يحكيه « الفونوغراف » ، واشهد الله شهادة لاحنث فيها ولا كذب ، أنى قد كدت أبكى أسفا لعقلية جماعة من الفلاحين والفلاحات ولحرمانهم من موارد اللهو وأمكنة الاستمتاع بالحياة والقدرة على التسلية ، يوم أبصرت هذه الجماعة فى قرية صغيرة من قرى ريفنا المصري لا تزال حية ترزق حتي كتابة هذه السطور ، ابصرتهم جميعا قعودا ووقوفا أمام « الفونوغراف » ينظرون بلهفة وبذهول الى ذلك « الانسان » الذي يختبيء فى نفير « الفونوغراف » ثم يغني مايردده هذا الفونوغراف ، ثم يحاولون أن يتعرفوا كل شيء عن هذا الانسان المختبيء ، واني لأذكر أنى رأيت بينهم امرأة عجوزا تتراجع الى الوراء وجلا وخوفا لأنها كانت قدسمعت « اسطوانة »

تحكى شجاراً وعراكا فخافت أن تمسها عصا من عصيهم أو لطمة من لطماتهم ، : عقلية مسكينة جاهلة تستحق الرحمة والشفقة !

لقد ذكرت أن آلات الموسيقي في ريفنا هي الأرغول والسلاّمية ونسيت أن أذكر عاملا ثالثا مهما في حياة اللهو في ريفنا المصري لا يخلو من خطر واهمية ، ذلك هو « الربابة » ويقابلها فى المدن « الكمنجة » ، واذا كنا نتقبل الاصوات والأغاني وأدوار الموسيقي بآلاتها المختلفة ونستحسنها ونسوغها بحسب ثقافتنا وتكويننا العلمي وتربيتنا الخلقية وبحسب استعدادنا لقبول الالهامات العليا وشعورنا بسلطان « الجمال » وادراكنا « للعالم الباطني » ، أقول اذا كنا كذلك فليس بعجيب أن تكون « الربابة » عند الريفيين ولدي العامة أشد من « الكمنجة » تأثيراً فى العواطف وامتلاكا للقلوب وللحواس جميعاً وأدعي الى ترقيقها وتهذيبها ، ولشد مايهرع الريفيون الى ذلك الذي يسمونه « شاعراً » ويجلسون حواليه وتعتلي النساء أسطحة الدور ويترامي الاطفال والاولاد تحت أقدام الرجال ، ثم يجلس هذا « الشاعر » على دكة خشبية ليظهر بين القوم ، ويمسك ربابته ويبدأ بتجربة الاوتار ثم يشفعها « بكحة » تتوالى المرة بعد المرة فيرهفون له آذانهم الصاغية ويسود عليهم جميعاً السكون وكأن على رءوسهم الطير !

وهنا يبدأ هذا « الشاعر » بمديح النبي عليه السلام ، ولا يخلو هذا المديح غالبا من « التغزل » أو التشبب به ، فهو جميل ،

أ كحل العينين ، أدعجهما ، بهما حور ، احمر الخدين ، متورد الو جنتين ، دقيق الفم ، لؤلؤي الثنايا ، ياقوتي الشفتين ، والى غير هذا مما هو خليق بالحسان وبالغيد الجميلات لا بنبي عظيم صاحب دين كريم ودستور اجتماعي كبير خطير ، لا بمحمد صاحب « الرسالة » الكبرى ونبيّ الكتاب الاعظم ، ومن العجيب بل من المخجل حقا أن نسمع في هذا العصر الذي نعيش فيه وفى سنى تلك النهضة التى نهضناها والخطى التي خطوناها ، أن نسمع عن « النبي » من الوصف ما نسمعه من المجنون عن « ليلاه » ومن كثيّر عن « عزة » ، ان هذه لا كبر وصمة تتنزلها بديننا وأشد جريمة نرتكبها ضد « نبينا » ، ولقد حان الحين لأن نعرف عن « النبي » ما يليق باسمه العظيم وبدينه القويم وبرسالته الكبرى وبمذاهبه وتعاليمه الاجتماعية الروحية الفلسفية الخالدة أبد الآبدين وإذا ما عرفناه حقا وفهمناه كما يجب ان نفهمه ، هنا يكون حبنا له وصلتنا به واندماجنا فيه وتتبعنا وخضوعنا لتعاليمه ولسنته ، اقوى وأثبت وأصدق من هذا التغزل المخجل وهذه الالفاظ الحقيرة ، ولن يكون « حب الجهل » كحب المعرفة والفهم والأدراك » !.

ثم يتطرق هذا « الشاعر » من مديح النبي عليه السلام الى مديح أبي زيد الهلالي فيذكر قصيدته هو والزناتى خليفة ودياب بن غانم ، وما أظهره كل من هؤلاء الفرسان الابطال فى الحرب من ضروب الشجاعة الخارقة وما قاساه « الهلالية » من ألوان الهول والبأس ،

وكيف أذلوا « الزناتية » وقهروهم وأخضعوهم الى سلطانهم ، ثم يذكر جمال «عاليه» امرأة أبي زيد ، ويتغزل فيها ويتشبب بكل جزء من جسمها ، ويفتن في وصف كل مظهر من مظاهر جمالها ، في صوت لا يخلو من جمال احيانا ، بحيث ترى الكل قد استفزتهم هذه الضروب من الشجاعة فحركت فيهم النخوة والبسالة واظهروا اعجابا بهؤلاء الابطال، واعجابا خاصا كله التفاني والولاء والتعصب «لأبي زيد» بطل الحرب ورجلها ، وعند اشادة «الشاعر» بمحاسن «عالية» وغيرها من النساء وبعيونهن وشعورهن وصدورهن ونهودهن ، ترى الرجال قد توسعت احداق عيونهم وانفرجت شفاههم عن ابتسامات لها معناها وعن ضحكات الاعجاب ، وتمثلت شهواتهم وبرزت سافرة على عيونهم وعلى وجوههم كأنهم يشهدون حقا « عالية » هذه ، وكأنها أمامهم تنفث فيهم سحر جمالها ودلالها ، وكأنهم يريدون أن يقتلوها نظرا وتفرسا و « زنا العيون » !

هذا الضرب من اللهو الريفي المصري البسيط البالغ جمال البساطة وبراءة السذاجة ، ليس قاصرا على الريف بل يجد منازله حينا فى بعض احياء مدننا عند العامة ومن اليها ، وليس هو بقاصر أيضا على مصر وحدها ، فاننا نعرف « الالياذه والاوديسا » لهومير ان تحققت هذة النسبة من الوجهة التاريخية الادبية ، ونعرف أن اليونان القدماء كانوا خاضعين كل الخضوع لهذا الضرب من اللهو

وكذلك كل الامم فى عهود بداوتها وفطرتها ، وكانوا يتلذذون حقا بالجلوس أو الوقوف حول « هومير » وغيره من القصاص والشعراء يذكرون لهم الحروب القديمة وأبطالها ، واعمال هؤلاء الابطال وشجاعتهم وبسالتهم ، كل ذلك بأسلوب قصصي جميل له جماله وله انغامه يتفق وعواطف القوم وميولهم وشعورهم وأوساطهم وتربيتهم وتكوينهم ، ونحن نعرف ايضا ان لكل أمة بدويها ومتحضرها ضروبها من اللهو ، ولكل منها الطرق والوسائل المختلفة لأرضاء عواطفها ونزعاتها ، واشباع شهواتها وميولها ، وحاجات عقولها وقلوبها

واذا كانت أيام « الاعياد » تحسب من حياة اللهو ، فما هو يوم العيد في ريفنا المصري ؟ تحس بتباشير « العيد » حينما ترى كل امرأة تحيك ثياب أولادها الجدد ، وحينما تبصر حركة عامة شاملة في البيوت جميعا ليلا ونهارا : من عجين الخبز واعداد « كعك » العيد ، ومن دخان متصاعد من فجوات الدار ومن فرنها ، ومن عملية غسيل ، ثم تجفيف ونشر على أسطحة الدور ، الى عملية كنس الحارات ، كل امرأة أمام دارها ، الى عملية « الحناء » وخروج كل امرأة في الليل بيلاصها أو صفيحتها الى الترعة للاستعداد للاستحمام والاغتسال !

ولن تطلع الشمس من خدرها ومقصورتها صباح العيد حتى تملأ عينك مناظر الاطفال والاولاد بجلاليبهم الحمراء والبيضاء ،

وبأيديهم الملطخة بالحناء ، وفي أيديهم قطع الحلوى أو « عفريت النسوان » أو لعب أخرى ، ثم تبصر جماعات الريفيين بجلاليبهم البيضاء غالبا ، وبيلغهم الصفراء الجديدة و لبدهم السوداء أو الحمراء حينا ، يسيرون مبتسمين فرحين مهنئين بعضهم بعضا بالعيد السعيد المبارك ، الذي قلما يتلاقون ويتقابلون جميعا الا في مثله متوجهين الى المصلى والى المساجد حيث يقيمون هناك صلاة العيد ، وبعد ذلك الى مقابر الموتى حيث يرفعون لهم هناك أدعية الرحمة وينزلون عليهم غيث المغفرة والرضوان ، وحيث يتذاكرون المصير الاخير والنهاية القاسية المرة ، ويتذاكرون موتاهم الاعزاء وماذا خلفوا في حياتهم ، فيتخذون منهم ومن اجدائهم وعظامهم عبرة الحياة وعظة الموت ودرس « المصير »

وهناك تشاهد بين المقابر جماعات النساء بسللهم وبأسباتهم مليئة بالكعك وبالتمر وبالحلوى لتوزع على جموع الاطفال والاولاد هناك « رحمة » على موتاهن وذكرى لعهودهم ووفاء لحقوقهم ، ويملأ سمعك أصوات عالية من جماعات « الفقهاء » يقرأون سورة « يس » الكريمة خاصة ، ثم يجازون على ذلك ببضع « كعكات » أو جانب من التمر

وأخيراً يعودون الى ديارهم ، يتزاورون ويهنئون بعضهم بعضا رجالا ونساء ، وفى العصر يخرج الرجال الى الخلاء والامكنة الفسيحة أو « الاجران » ، وهناك يلعبون « لعبة الحطب » وهي

كما قلنا المبارزة أو المضاربة بالعصي الغليظة ، أو يلعبون بالكرة من الخرق البالية ، أو يقضون جانبا من الوقت في « الاراجيح » المزدحمة ساحتها بالاطفال والفتيات والرجال

ومن المدهش أن ترى أحيانا في يوم العيد في الحقول كثيراً من الفلاحين بجلاليبهم الزرقاء يزاولون عملهم اليومي بجد ونشاط ولا يعطون جسومهم حقها من الراحة حتى فى مثل هذا اليوم !

هذه هي صورة مختصرة جداً للعيد فى الريف . وهي صورة ساذجة بريئة كما نرى ، ولكن نلاحظ انه ينقصها روح « الحياة » والشعور بالذات ، وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في مدننا وفي ريفنا ، فلن نفهم من العيد إلا الملابس الجديدة الانيقة والا الطهي الجيد والمأكولات الشهية ، أما العيد كيوم نلتقي فيه والطبيعة العظيمة المحبوبة الجليلة في حدائقها وأزهارها وبحارها وأنهارها

أما العيد كيوم نحاول فيه الشعور بذواتنا وتغذية قلوبنا وأرواحنا مما في هذا العالم الرحيب من نور ومن جمال ، ونطلق فيه نفوسنا على سجاياها وطبائعها تنتقل على أفنان الحب وبين دوحات الجمال لا وجلة ولا متوجسة شراً ولا خائفة رقيبا أو عاذلا أو مواضعات الناس .

أما العيد بهذا المعني فبعيد عن بيئاتنا المصرية وعن تفكيرنا ، وهكذا نخلق لأنفسنا بأنفسنا مواضع الوحشة وغياهب الظلام وقيود الأسر !

قلنا قبل الآن أن الفلاح المصرى — رغما من بساطة حياة اللهو لديه — فهو لا يزاولها الا ندورا ، فلسنا نعرف رجلا مشغولا عن العالم وعن لهوه ولذاته منعزلا قابعا في داره ، محتقرا للحياة أو لمعناها بمعنى أصح مثل فلاحنا المصرى ، فهو لا يقدر لنفسه وجودا ذاتيا ولا يدرك معنى الشعور بالحياة ، ولا يعرف ان هذه الحياة ملك لنا وحدنا ، نستمتع بها كيف نشاء وأني نريد وحيث نرغب ، أو ليست هذه الضروب من اللهو الا نوعا من العزاء والسلوى عما نلاقيه فى هذه الحياة من عنت ومن شقاء ؟ فليس من مصاب الا قدر الله له السلوى وليس من داء الا أوجد له الله الدواء ! وألا فكيف تكون هذه الحياة التى نحياها اذا كانت خلوا من السلوى وفيها ما فيها من نغص وبلاء ؟ والا فما فائدتنا من قلوبنا ومن آذاننا ومن عيوننا ، اذا لم تكن طرقا ومنافذ الى اللهو والى الاستمتاع بكل ما في الوجود قبل أن يغلقها الردم ويسدها ثرى الرمس ويطويها ظلام اللحد ؟ وماذا كان يكون مصيرنا وحياتنا اذا أريد منا أن نتحمل الألم وحده ثم نحرم اللذة ؟ وماذا كان يكون حالنا لو احتبست الآلام بين أطواء قلوبنا فلن تجد لها مخرجا الى العزاء أو متنفسا عن الشقاء ؟ كان أن تنفجر قلوبنا لتلفظ منها آلامها ، وتندك جسومنا لتطرد عنها همومها ، كان يكون الفناء والدمار والبوار ! ثم ما الموت ؟ أليس هو حرمان القلب أن يحب ، والعين أن ترى ، والنفس أن تتذوق لذات الحياة ، والروح أن تحوم في معابد الجمال

وأما كن القداسة ؟ واذا كنا لانتذوق لذات الحياة ونستمتع بلهوها وعبثها الآن ، فمتي تتاح لنا الفرصة لنلتذ ولنلهو ونعبث؟ أفي الرمس وقد اندثرت قلوبنا تحت أحجاره ، وبلي جسمنا تحت انقاضه . وتبددت عظامنا بين جوانبه ، وتبعثرت آمالنا وأحلامنا ورغباتنا وشهواتنا هواء فى ظلام وضلال ترابه ؟



الفصل الثالث

فلاحنا

« حياته ونفسيته »

قد يكون الفلاح في أمم أخرى أشقى من فلاحنا حالا ، وأتعس منه عيشا ، وأكثر منه شكوى ، وأرفع منه أنينا ، وأحر منه دموعا وأشد منه لوعة وأسى ، على حياة كلها جدب وفقر وبؤس وبلاء ، وجور واعتساف وضغط وحرمان ،

ولكن فلاحنا المصري يخيل لي أنه يكاد يكون أتعس فلاح في العالم اذا قيست أمته بالأمم الاخرى وروعى التناسب في حالات الحضارة والمدنية والنهوض ، ولقد نكون خطونا حقا خطوات واسعات موفقات مكللات بالفوز والنجاح في نواح كثيرة من نواحي النشاط الاجتماعي والانتاج القومي والسعي الاصلاحي ، ولقد نكون بلغنا في نهضتنا القومية الكبرى حقا شوطا مظفرا منتجا محمودا جعل اسم « مصر » يتردد ويعلو ويذكر في الساحات الدولية والهيئات العالمية ، كأمة لها من ماضيها الخالد ومجدها التالد وحضارتها الاولى بين حضارات العالم قاطبة ، ومن حاضرها الفاخر وبعثها الأكبر

واحيائها الشامل وجهادها المشكور الحي ، ومن آمالها في المستقبل الزاهر الجديد بماضيها العظيم وبتاريخها القديم ، الخليق بحيوات الشعوب الجديدة والأمم الناهضة الحية الشاعرة بوجودها وبكرامتها وبحرياتها وذاتيتها ، كأمة لها من ماضيها وحاضرها ومستقبلها ما يهيء لها أن تكون أمة الحكمة والحضارة والقوة والعظمة والخصب: أمة « السر » المستكن فى جدران الاهرام ، المغيب في رأس أبي الهول ورمال الصحراء العظمى !

أقول قد نكون قد خطونا هذه الخطوات الواسعة المشكورة فى جهادنا القومي وفي نهضتنا الكبرى ، وقد نكون حققنا جانبا من مثلنا العليا ونهضنا ببعض من أسس الاصلاح ودعامات الانتاج، ولكن بكل أسف وبكل خجل يندي جبيننا ويوصم فخارنا القومي وكبرياءنا المصري ، أقول بكل أسف أننا ابقينا فلاحنا المصرى حيث أبقاه الماضى السحيق العريق في القدم ، حيث أبقته العصور المظلمة السوداء وصنوف الحكم التي تقلبت عليه من رومان ومن عرب ومن فرس ومن مماليك ، وارتضينا له المنزلة التي اختارها له قياصرة الرومان ودهاقنة الفرس وحكام العرب وسلاطين آل عثمان، فى عصور الجبروت وعهود التعسف ودول الاستبداد !

فلقد نهجنا في حياتنا الخاصة والعامة الداخلية والخارجية منهج الغربيين ، وغيرنا فى أساليبنا التفكيرية وفى مناهج بحثنا وألوان كتابتنا وطرق حديثنا وفي معاملاتنا الخاصة وفى حياتنا المعيشية،

وفي وجهات نظرنا المختلفة الى الحياة والى العالم والى الانسانية جميعا ، وغدونا نرفض اليوم ما كنا نطمح اليه بالامس ونأمل في حياة جديدة وفي عصر جديد خليق بتفكيرنا وطموحنا ورقينا ونهوضنا ، بماضينا وبحاضرنا وبمستقبلنا أيضا ، وأصبحت لنا مثل عليا تختلف عن اخواتها فى الماضي باختلاف العصور وباختلاف الاستعداد ، وأصبحت لنا حريات مقدسة اكتسبناها بدماء شبابنا وبحكمة شيوخنا ، وسوّرناها بمهجنا وأرواحنا وقلوبنا ، وأنزلناها منا منزلة الدم في عروقنا والروح لجسمنا ، وغدونا نستمتع بعض الاستمتاع بحريتنا التفكيرية المقدسة السامية ! !

ولكن ! ولا بد لنا في هذا المقام من (ولكن) ! ولكننا تركنا ريفنا وفلاحنا، تركنا هذه الناحية الكبرى من حياتنا فى خمودها وفي رقادها بين رمال الماضي يأتي على نشاطها وعلى حياتها، تركناها ليد الزمن تعبث بها كيف تشاء وانى تشاء ، تركنا الفلاح المصري فخر مصر وسيدها في جهله وفي حرمانه من الاستمتاع بالوجود والشعور بالحياة ، وفي ألوان استبداده وصنوف تعسفه يعاني من كل هذا جميعا شر ما يعانيه انسان تألب عليه الوجود كله وحرمه حقوق الانسان ! ! وانه ليخيل لي أن العلة الأولى من تعس فلاحنا، لا ! فى سبب تأخرنا كشعب وكأمة عن الأمم الاخرى وفي سبب الحياة التي نحياها الآن والتي نذوق مرارتها ونتجرع غصبا واكراها صابها وعلقمها ، انما هي « الجهل »

أىما هي هذا الظلام الذي يشمل كل وجودنا وينشر من فوقه ومن تحته ومن يمينه ومن يساره طبقات بعضها فوق بعض فلا نبصر شيئاً ولا نشعر بشيء ، أىما هي هذه القيود والأغلال والأصفاد التي في أيدينا وفي أرجلنا وفي اعناقنا فلا نتحرك الا فى أبعاد مخصوصة وفي أوقات معينة وتعاليم محدودة .

هذه العلة هي مصيبة مصائبنا ، ونكبة نكباتنا ، هى السر فيما نحن فيه الآن وفيما نتحمل من ذل الاستعباد ونير الاضطهاد ومرارة الفاقة والحاجة ومسكنة الضعف ، هي التي تقفنا الآن مكبلين بقيودنا مكممين بكماماتنا ، أذلاء خانعين أمام من يتحكم فينا ويستبد بنا ويسوقنا الى ما يريد ، هي التي تجعلنا الآن عالة على العالم جميعا حتى في بصيص النور الشائع للامم قاطبة ، فلا نزال وسوف نبقى طويلا في حاجة الى الغرب ننهل من موارده العلمية ونتهافت تهافت الفراش على مدارسه وعلى جامعاته نحصل فيها ما نعجز عن أن نحصله فى معاهدنا وفى جامعتنا ، والى أن ينقطع هذا السيل الجارف ، والى ان نستغنى عن هذا الاستجداء ، فسنبقى عبيداً للغرب وللمستعمر وان منحنا واستردت الينا حرياتنا وحقوقنا المسلوبة المغصوبة ، والى ان تأخذ حياتنا التعليمية كلها الصبغة « المصرية » والطابع القومي الأقليمى فسنحنى رءوسنا ذلة وخضوعا كلما ذكرنا اسم « الغرب » أو الحضارة الأوروبية ! واليوم الذي يغترف فيه كل مصري من هذا « النور » الزاهي الشائع : والذي يتأقلم فيه العلم عندنا ويتخذ صبغة

القومية ، في هذا اليوم نشعر حقا ونؤمن حقا بأننا أمة محترمة مهيبة لها مجد ولها فخار ولها طابع خاص ، ونؤمن بأن لنا مقاما عالميا وصبغة دولية يحسب حسابهما فى الهيئات الدولية وفي الجهات العالمية وبين الشعوب المحترمة !

لشد ما يستدرجنى فلاحنا المسكين ! حرمتـه الحكومات المتعاقبة التي لا تعنى الا بأبهتها وبعظمتها وبجاهها وبكراسيها، وحرمه الاغنياء القابضون على أموالهم بأيد من فولاذ ومن صلب ، وحرمته العصور الماضية السوداء ، عصور الحكم الاستبدادي فى عهد المماليك والأتراك ومن اليهم من مستعمرين ومن مستبدين ، كل هؤلاء جميعا تألبوا عليه وحرموه حقه من النور الشائع الذي وهبه الله للعالم جميعا ، للانسان الذي خلقه فسواه وفضله على الخلق قاطبة ، حرموه هذا الحق المباح واتخذوا من انفسهم آلهة له يتصرفون فيه وبه كيف يشاءون وحيث يريدون ، يعطونه حين ترى اراداتهم العليا أن تعطى ، ويحرمونه حين تشاء هذه الارادات أن تحرم !!

وسنحاول منذ الآن فى السطور التالية تصوير حياة هذا الفلاح تصويرا جهد المستطاع ، ان لم يكن صادقا كله فلا شك أن فيه ناحية كبيرة من الصدق وجانبا عظيما من الحق ، وسنكون فى هذا التصوير على خير وأضبط وأدق ما تقضيه الأمانة علينا ، ونستمد هذه الالوان لتصويرنا مما شاهدناه ونشاهده لا مما سمعناه أو نقلناه حتي نرضي ضميرنا والحق وحدهما !

يسكن فلاحنا في دار صغيرة من الطوب الأخضر النيء غالبا حيث لا يمر عليها شتاء غزير حتى تتشقق جدرانها وتتصدع أركانها وتميل جوانبها ، وسقف هذه الدار أو هذا الكوخ من القش أو من البوص في الغالب . ولذلك فهو مهدد في داره بالموت من جراء هذا التهدم والتصدع وهذا الأساس الواهي الضعيف للبناء ، وأولاده أيضا مهددون بالسقوط من عل في أي وقت ، وجميع أفراد العائلة مهددون في فصل الشتاء بوابل المطر حيث ترى فسحة الدار كأنها مجمع أوحال أو كأنها بحيرة ، فالماء وسط الدار وفي داخل الغرف أحيانا ويتساقط مدراراً من السقف بل ومن كل مكان ، ويلجأ المساكين الى الافران يصطلون ويستدفئون والسقف واكف والسماء ممطرة والطبيعة غضبى والوجود ثائر .

ودار الفلاح تتكون من حجرتين أو من حجرة واحدة أو من ثلاثة على الأكثر اذا كان عدد افراد العائلة كبيرا أو عدد المواشي كثيراً ، واحيانا تضيق به رحبات الدار ، وفي هذه الحال تجده لا يرى مضاضة في أن يتخذ مضجعه هو وزوجه وأولاده بجوار مواشيه وحميره ، وقد يدفعه ويلجئه أيضا الى الاضطجاع بجوار مواشيه خوفه عليها من السرقة ، فلا يستريح ويهنأ حتى ينام بجانبها وتحت أرجلها أحيانا وذلك لأنه مهدد دائما من خصومه بالسرقة .

وهذه الدار للفلاح المصري فخر مصر وسيدها تبنى على أحط قواعد الصحة فكأنه ليس ثمت من حكومة تشرف على صحة

أبنائها ، فلا عهد ولا وفاء ولا رقابة ولاعناية بهذا الانسان المسكين.
الذي يحمل هذا الاسم الكريم وليس له من مفهومه أو دلالته قليل
ولا كثير ، ففى بعض الدور تكاد لا تجد نوافذ للدار وان وجدت
فهي من الضيق بحيث لا ينفذ منها جانب كبير من الهواء الطلق الذي
يصرف مافى الدار من عطن ومن هواء فاسد ومن رائحة كريهة ،
وارتفاع الجدران واطىء جدا وكذلك سعة الحجرات ، ثم من المؤلم
بل من المخجل بل من المبكى أن نومه وأكله ومتاعه وفرنه
واستحمامه يكاد يكون أحيانا في حجرة واحدة ، فترى الرجل
ينام بجوار زوجه ، وبجوارهما أولادهم ، وقد يكونون أحيانا في
سن كبيرة ، واذا كان الصيف تغطي معظم اسطحة الدور في القرية
بالنائمين وبالنائمات على القش او الحطب ، أما ماؤه الذي يشرب
منه فحسبك منه الماء الراكد في الترع القذرة المليئة أحيانا بجيف
الحمير والكلاب والقطط وما اليها ، بل لست أجد غضاضة فى القول
بل ولا مبالغة وغلوا اذا قلت أن مواضع شربه أحيانا هي نفس
مواضع شرب مواشيه ، وقد تكون مواضع تبوله في بعض الاوقات
وفى بعض الأمكنة وذلك دون أن يشعر او يعرف ، يلجئنى الى
تقرير هذه الحقيقة وهذا اللون من الوصف ومن التصوير حرصي
على أن أصور ريفنا وفلاحنا كما نشاهده وكما نعرفه حتي يتشخص
لنا الداء ليسهل علينا بعد ذلك الدواء ، وحتي يعرف من لا يعرف
فلاحنا المصري أن هذا الفلاح غريب كل الغربة عن الحياة الانسانية

المحترمة الموفورة وعن الحقوق المباحة الموهوبة الممنوحة له من خالقه ، وهذا الواجب الذي أخذته على عاتقي والذي اضطلعت بحمله هو الذي يضطرني ويدفعني الى أن أكون أمينا فى التصوير وأن أغضب هذا اللون من التصوير بعض المكابرين الذين لا يريدون أن نصور عيوبنا وحالاتنا الحقيقية ونقائصها ركوبا للرأس وتعلقا بالغرور الكاذب والانفة الجوفاء ، ولقد حان الحين بأن نتدرع بالصراحة وبالشجاعة فى الرأي وفى القول وفى التفكير في كل عمل من أعمالنا وفي كل ناحية من حياتنا ، تاركين الجبن والخوف لمن لا يعرف لنفسه قدرها ولا يحترم عقله ولا يعز وجوده ، تاركين للمزوّر وللغاضب وللمكابر ان يركب رأسه وان يسلك أي مسلك يشاء ، فلن نؤثر سخطه على رضاء الضمير ، ولن نلغي عقولنا ونخون الحق ارضاء لأنفة كاذبة ولمكابرة باطلة! هذه الحياة النكداء الوبيئة المهملة القذرة هى السر أو هي العلة في تفشي الامراض بين فلاحنا المسكين ، وقديما قالوا : ان الوقاية خير من العلاج ، فاذا كان كذلك ففلاحنا أو أولو أمره هم المسئولون الى حد ما عن كثرة هذه الأمراض التى تفتك بصحته بل باليد العاملة النشطة المنتجة في هذا البلد ، ففضلا عن عدم قدرته أوعن عدم رضائه فى أوقات كثيرة للتطبب وللعلاج فانه لا يعرف بل يستهين ويحتقر الوقاية وصنوفها ، وعلة ذلك كما قلنا قبل الآن هي جهله وعدم عناية أحد به ، وحسبك بأمراضه الكثيرة هذا العدد العديد من العميان في القرى ، ومن الذين تهددهم صنوف

الحمى المختلفة والملاريا والتيفوس والزلال والبلهارسيا والانكاستوما، وهذان الأخيران لا يكادان يفارقان أحدا في ريفنا بمقدار يختلف قلة وكثرة وقوة وضعفا .

وهو اذا مرض ألقاه أهله في الدار أو في القاعة ثم يجتمعون حواليه ويضايقونه بكثرة أنفاسهم وشدة لجبهم، ويعطونه كل أنواع الطعام الميسر لهم خوفا من أن يحرم لذة هذا الطعام فيدعو عليهم ويغضب منهم .

هذا ولو اشتد به المرض وثقل عليه، فكثيرا منهم لا يفكرون في طبيب يعالجه أو على الأقل يقول كلمة الطب فيه : فالطبيب كما لاحظت هو أعدى أعداء فلاحنا، والطب عنده يكاد يكون أمراً نكرا، وغاية سعيهم وجهدهم أن يكلوا أمره الى قدر الله المحتوم (وهو وبخته)

وهذا الاعتقاد الأعمي البالغ أقصى حدود العماية، والجهل بمعنى القضاء والقدر يكاد يكون علة مرضنا الاجتماعي وانحطاطنا المجموعي، وخصوصا عند فلاحنا

فاذا سألته : ما بالك لا تفعل هذا ؟ يبادرك بالجواب : « اللي مكتوب عالجبين حايكون » ، فكأنهم يريدون من القدرة العليا المقدسة ان تحل لهم وتربط كل شيء وأن تقدم لهم كل مرافق حياتهم وهم جالسون ناعمون فارغون على مصاطبهم وفي ساحات قاعاتهم وعلى جوانب ترعهم وفي حقولهم ! .

هذه « الاتكالية » العمياء التي ليست من الدين الحق في

شيء ، ولا من العلم في شيء ، تكاد تكون سر انحطاطنا الى الآن ، والعلة الاولى فى تأخرنا في كل نواحي الحياة المحترمة الموفورة الكاملة ، في تأخرنا عن الأمم التي تعدو وتجري ونحن لا زلنا وراءها نزحف ونحبو ، يعتقد الفلاح والجاهل والذي لا يعرف لدينه حرمة ولا لعقله منزلة انهم غير مجبرين على العمل وراء أرزاقهم ووراء رفاهتهم ، ويعتقدون أن الله قد قضى فيهم قضاءه يوم ظهروا الى هذا الوجود بل قبل ان يظهروا ، فمن العبث واضاعة الوقت ومجاهدة المستحيل ، بل من الخروج على الدين وعلى صاحبه أن يعملوا في الحياة بما يوسع لهم من الرزق وبأن يغيروا هم وجهات حياتهم بأنفسهم بحسب أعمالهم وبقدر جهودهم

قال الله تعالى في كتابه الكريم : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقال أيضا : « وأن ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » . فترى هنا ان الانسان مسئول عن عمله وانه بنفسه يوجه نفسه بل ويكيف نفسه

نعم ! كل شيء فى الوجود وفي الكون وكل ما على الارض وما تحت السماء وما فى جوف البحار يذعن لأمر الله ولا يحدث ولا يتغير الا بارادته تعالى ، ولكن هذا لا ينافى مطلقا ولا يتناقض ونظرية السعي والعمل والكفاح في هذه الحياة التي نحياها ، لا يتناقض وقول صاحبنا « نيتشه » رسول الكفاح والقوة « لا أوصيكم بالسلم بل بالنصر ، فليكن كل عملكم كفاحا ، وليكن كل سلمكم

نصراً » أما علاقة تقدير الارزاق بالسعي وبالعمل فليس لنا أن نبحث فيها لأنها ليست من اختصاصنا كما يقول رجال القانون. وعلمها عند ربى ، وكل ما فى أيدينا وما فى وسعنا وما يجب علينا ، أن نعمل وان نكد وان نكافح في سبيل العيش والحياة دون أن ننظر الى أى اعتبارات أخرى ،

والله تعالى أرأف بعبده الانسان من أن يخلقه في هذه الحياة آلة أو لعبة لا يسأله عن عمله كالقاصر أو كالمعتوه ، بل منحه ما يوسع حدود ذاتيته وما يعلي به كرامته، وما يسأل به عن كل أعماله ويحاسب عليها حسابا عسيراً ، وهو لا يحاسب هذا الحساب العسير الا لأنه ترك له بأن يوجه حياته وأعماله كيف يشاء وحيث يريد

وكل هذا يتفق كما نرى وأبسط قواعد المنطق ، ويتفق اتفاقا تاما مع المكانة المحترمة العليا المقدسة ومع الغاية التي ارادها الله. صاحب الأديان جميعا لدينه القويم السامي ، اما خلط العامة والجهال ومن في عدادهم هذه « الاتكالية » العمياء بالدين ، فليس هو الا أثر ومظهر قصور عقولهم عن الفهم وعجزهم عن تحمل آلام التفكير ، فتمحكوا بالدين شأنهم في كل شيء يجهلونه ولا يحبون أن يفكروا فيه، واليوم الذي لا نخلط فيه بين الدين وبين أى ظاهرة في الحياة ونحدد للدين حدوده التى ارادها الله له ، واليوم الذي نعتز فيه بعقولنا ونحترم تفكيرنا ونري كل شيء في الوجود قد وضعه الله تحت أشعة العقل وتشريح التفكير احتراما للعقل ميزة الانسان الكريم ،

في هذا اليوم يبدأ شعورنا بوجودنا ، ونبدأ في خطواتنا الاولى في السعي وراء الحق والكمال !!!

وقد تعجب أحيانا لمعالجة فلاحينا أمراضهم بأنفسهم فيفعلون ما تتقزز منه النفس وتقشعر ، فماذا تقول في الكى بالنار المحرقة على الأبدان الحية وعلى الاجسام النضرة الطرية ، ماذا تقول فيما يسمونه « الخزم » هذه العملية القاسية التي يعالجون بها الحيوان والماشية ، ثم لا يأنفون أن يعالجوا بها الانسان أيضا، وهذه العملية « الخزمية » هي خياطة الجسم بالأبرة أو « بالمسلة » والجسم حي لا مخدر ويعالجون بها معظم الامراض كرمد العيون وما اليه ، ويكاد كثير منهم لا يثق بطبيب لأنه في رأيهم مشعوذ ، ولأنهم يسيئون الظن بكل منتجات العلوم ولا يرونها الا بدعة أتت بها المدنية المتحذلقة، ولأن الانسان لديهم ليس اشرف من الحيوان الذي يلازمهم ويعاشرهم ويناومهم أحيانا !

تكلمنا قبل الآن عن دار الفلاح في الغالب ورأينا كيف يعيش هذا المسكين هذه العيشة النكداء في عصر نقول أنه عصر النور والعرفان ، ولكننا لم نتعرض للدار من الداخل أو أن تعرضنا لها فلم نعرض لها الا لماما ولم نمر بها الا كراما !

اذا دخلت دار فلاحنا واحببت ان تتفقد معيشته وتتعرف كيف يعيش لا تجد لديه سوى جانبا قليلا من الأذرة اوالشعير او القمح ان كان واسع المعيشة قليلا ، وهو يشتري حاجاته المعيشية

ببيع جزء مما عنده من غلال أو برسيم أوفول اذا عزت عليه الفلوس وكثيراً ما تعز بل وتندر !

أما قوته الذي يعيش عليه معظم الأيام فلا يزيد عن البصل والمش والجبنة والجرجير والعسل الأسود وصنوف المخلل ، أما البيض فيبيعه فى الغالب ويضن على نفسه بأكله حرصاً على تحصيل واكتساب فلوس منه ولا يزال للآن في القرى من يضيء « المسرجة » بالزيت بدلا من الغاز ، حرصا على الاقتصاد في المعيشة البالغة أقصى مراتب الضيق ، أما البط والفراخ والأوز فكثيراً ما يبيعها وقليلا ما يأكلها ، فاذا جاء يوم « السوق » وهو يوم محترم مذكور أبصرت النساء على الحمير وأمامهن بطة أو فرخة أو ديك ثم يعدن بالسكر والشاي وما اليهما

وتتضح لك حالة فلاحنا المسكين الماديه جلية بيّنة ، وأنت تتعرف شعوره النفسى والابتسامة الوادعة التي تمر على شفتيه حينما تدخل عليه في داره فيسرع اليك ببشاشة وطلاقة ، ويقدم اليك أجمل ما عنده من حطام وأثاث : حصيرة تظهر عليها الجدة ! مسكين فلاحنا ! أقل شيء يفرحه لأنه فقير ولأنه تعس !

ومع هذا الفقر المدقع وهذه الحياة الضيقة التي كلها بؤس ونكد وحرمان ، مع كل هذا فأن كثيراً من فلاحينا ، من هذا الجيش العامل المنتج ، يتعاطى المكيفات وأكثرها انتشاراً بينهم هو الدخان والشاي والأفيون والحشيش ، بعيدين عن عيون

الحكام وعن رقابة رجال الضبط والمباحث ، مسكين أيها الفلاح !
كل المصائب ألب عليك ، وكل البؤوس حليفة لك ! !

ومن المدهش والعجيب ان كثيراً منهم يؤثر أن يشرب الشاي أو يتعاطى الدخان أو الحشيش على أكله وأكل أولاده المساكين ، ولقد تراه عريانا وترى زوجه وأولاده يشكون مرارة الفاقة وذل العرى ، ومع ذلك لا يحرم نفسه أو مزاجه تعاطي هذه المكيفات ، متجاهلا كل هذه المصائب الذي لا تنزل فرادى كما يقول « شكسبير » بل زرافات وجموعا ! !

أما عن جهل فلاحنا فهو طامته الكبرى وهو مصيبة مصائبه والعلة الأولى فى كل ما يعاني من ذل وحرمان وتعسف وارهاق ، بسيط في علمه الى أبلغ حدود البساطة الفكرية ، ولا يكاد يعرف شيئا ما عن هذا الوجود وذلك العالم ولا يفرق كثيراً بينه كانسان له وجود خاص وذاتية خاصة وبين الكون الذي يكتنفه ويحيط به ، فهو في هذه الحال الشعورية كالطفل يحسب نفسه والكون والعالم شيئا واحداً فالنفس هي الكون وهي العالم ، وحواسه تكاد تكون معطلة كل التعطيل ، وذلك لأن عصور الاستبداد التي مرت بفلاحنا ، ولأن تلك القوانين الجائرة وهذا النظام الجائر الفاسد الذي يسير عليه الفلاح مكرها مرغما ، كل هذه العوامل جميعا حرمته كل حق يمكن أن يستمتع به كانسان له وجود وله كرامة ، وكلفته بكل الواجبات الجسيمة التي تقوم عليها مرافق حياتنا وعماد ثرواتنا ،

ثم عطلت حواسه حتى صدأ عقله وزال من عينيه — أو كاد — بريق النور والحياة والشعور ، وخلقت منه كل هذه العوامل انسانا ساذجا بسيطا ، لا يعرف شيئا في هذه الحياة الا التسليم الاعمى للقضاء والقدر ، والا الخضوع المشين المزري لرؤسائه وحكامه فأصبح يحني رأسه لكل رئيس ويستذل لكل سيد ، ويخضع خضوعا فاضحا لكل ظلم يقع عليه ، حتي كاد يتساوى لديه الظلم والعدل ، والحق والباطل ، بل النور والظلام !

وهذا الخضوع المشين للظلم وللجبروت ، وهذا الفقدان للشعور بالنفس ، وهذا الاستخذاء والذل وبيع الكرامة والجبن والخوف والرهبة ، كل هذا جميعا أفقده ارادته وسلبه كرامته ، حتي غرست في نفسه المذلة والهوان والضعة ، فأصبح لا يشعر بكرامة تهان ولا بعزة تجرح ولا بشرف يثلب ولا بحق يضيع ولا بحرمة تنتهك .

والشعور هو كل شيء فى هذا الوجود ، وأكثرنا شعوراً وأدقنا حساسة هو اشدنا تبجيلا وتوقيرا ، وأصحنا فهما للحياة ولما فيها من حسنات وعيوب ، وأكثرنا أيضا تعرضا لآلامها ولمصائبها ، وأن كان « ديكارت » قد قال « أنا أفكر اذن فأنا موجود ، فلقد عارضه جوستاف لوبون » بقوله « أنا أشعر ، إذن فأنا موجود »

فتلك المصائب العديدة التي تنزل بفلاحنا ، وتلك العوامل كلها في بؤسه وفي تعسه لم تكتف بان حرمته نور العلم ، ولا بان

وضعته هذا الوضع الجائر القاسي ، بل حرمته أيضا أن يشعر ، بل افسدت عليه قلبه وضميره وشعوره ، وتلك هي نكبة النكبات ، وتلك هي مصيبة مصائبنا حين نملك قلوبا وحين يكون لنا ضمائر ، وحين يكون لنا أعصاب وحواس وعواطف ، ثم نرى تلك القلوب مغلقة معطلة في حكم الميتة ، وتلك الضمائر وهذه الاعصاب والحواس والعواطف مهملة فاسدة ، وهذا الذي يعتدي على قلوبنا وعلى ضمائرنا ، والذي يفسد علينا مشاعرنا ، هو أكثر اجراما وأشد خطراً من هذا الذي يعتدي على جسومنا وابداننا بالضرب او بالتعذيب او بالحبس او ما اليها جميعا !

كل هذه العوامل جميعا كما قلنا ساعدت على فقدان فلاحنا شعوره بنفسه وبكرامته وبحقوقه وربّت فيه الجبن والخضوع والاستخذاء ، وجعلته يقبل يد ظالمه كما يلحس الخروف بلسانه اليد التي تمتد لتريق دماءه ، فأصبح لايعرف الا رئيسه والعمدة والبيك المأمور وجناب المعاون وحضرة المحضر والباشا المدير كما ينعتهم .

والحكام والرؤساء وأولو الأمر يستغلون فيه هذا الجهل وهذه البساطة وهذا الفقدان للشعور وهذا السكوت الكريم والرضاء الجميل للذل والهون ، فينزلون به كل ضروب الارهاق والظلم التي ترضي قسوتهم وتغذي اطماعهم ، ويسنون له ما يشاءون من قوانين المذلة والمهانة وهو بعيد كل البعد عن وضعها سواء بالطرق المباشرة

أو غير المباشرة ، فالمالك يمتص دمه ويهدده كل عام بالحجز على غلاله ومواشيه ومحصوله أو متاع داره اذا خانه الحظ — وليس له في تصاريف القدر وتوجيهات الحظ يد ولا أمر — وساء محصوله أو هبط سعر القطن ، والحكومة تفرض عليه الضرائب العديدة كضريبة الخفر وضريبة الأطيان وضريبة مجالس المديريات ، ولقد يروعك هذا اذا علمت ان مجموع هذه الضرائب التي تفرض على الفلاح تقدر تقريبا بربع قيمة ما يدفعه من الايجار للمالك عن الفدان ، فبربك كم يحتمل هذا الفلاح المسكين كل هذا الجور والارهاق . اذا كان حتي مرور بعض الحكام ورحلاتهم ورياضتهم ونزهاتهم كل ذلك يجبي ويحصل من مجهود فلاحنا المسكين ! هذا الفلاح الذي يعد حتي العسكري أو الخفير في مرتبة البيك المأمور أو الباشا المدير كما يسميهم ، ولا زالت ذاكرتي تحفظ حكاية الفلاح مع الخديوي السابق ، حين خاطب هذا الفلاح الطيب الجاهل الساذج « افندينا » كما كانوا يسمونه وقال له : ربنا يرقيك ويجيبك عندنا مأمور ! وهذا الفلاح المسكين الذي يحسب أن هذا المأمور أو ذاك المدير خلفاء الله في أرضه لا يعصي لهما أمر ولا يرفض لهما طلب ، هذا الفلاح لم يتصور هؤلاء جميعاً هكذا ولم ينظر اليهم هذه النظرة التي كلها خوف وأرهاب وخشوع وتهيب ، الا لان جهله خيل اليه وأوهمه ان هؤلاء في مرتبة من الخلق أعلى من مرتبته أو من طينة غير طينته ، والا لأن يد الاستبداد والعصور السود التي مرت على

مصر فى تواريخها الطافحة بفظائع الجور وأنات البؤس ، وهؤلاء الحكام الطغاة الذين افردت لهم اللغات في قواميسها ومعاجمها لفظة « الدكتاتورية » والذين ابتلعوا أو استلبوا أرادات الأفراد والمجاميع وقبضوها فى يدهم التى يفخرون بأنها من فولاذ وصلب وحديد ، والذين يريدون أن يوجهوا أممهم ودولهم حسبما تشاء هذه الارادة العليا وهذه اليد الحديدية ، هؤلاء المستبدون الجبابرة الاقزام الذين يطمعون في أن يسحقوا ارادة الأمة وكلمة الشعب وصيحة الحق ، لتعلو أرادتهم المقهورة وتنتصر يدهم المغلولة المشلولة ، هؤلاء جميعا استغلوا كما قلنا جهل هذا الفلاح المسكين فسلبوه ارادته وساوموه على شرفه وعلى أنفته و كرامته ، ثم فعلوا به ما أرادوا ، ثم جعلوه عبداً يباع ويشترى بارادتهم ، ثم عاشوا وتنزهوا وتنعموا وتقامروا وتغازلوا ، وقضوا حاجات قلوبهم ونفوسهم بما يقتطعون من لحمه ويشربون من دمه ، ومن مجهود وعرق وشباب هذا الفلاح الشقي بجهله أبلغ مراتب الشقاوة ، والمسكين التعس بحكامه وملاكه أقصى منازل التعس !!

مسكين فلاحنا ! عليه كل الغرم وليس له من الغنم شيء ، حرموه نعمة العلم وتركوه في حال ليست اشرف كثيراً من حال حيوانه ، ثم استخدموا هذه الجهالة وهذا الفقدان للشعور في تنفيذ اغراضهم وقضاء شهواتهم حتى كاد يرزح بالحمل ويسقط صريعا أو يتخذ له طريقا أخرى يتخلص بها مما هو فيه من حرمان ومن جهل

ومن ظلم ، واني لأكتب هذه السطور وبي من الخشية ومن الوجل ومن الاضطرار للقول بأن حاله السيئة الحاضرة البالغة أقصى ما تتصور من جهالة وشقاوة واستعباد فى عصر سحقت فيه كل صنوف الاستعباد والاستغلال ، اخشى ان تدفعه الفاقة والحاجة الى العدل والاصلاح والى النور والحق ، الى ما انتهت اليه حركة الفلاح أو العامل في بلاد أوربا حينما أنوا من الشكوى ورزحوا تحت أحمال البؤس والفاقة والجهل والجور ، نعم ! اخشى ذلك اليوم كل الخشية وأخاف ان تلجئه هذه الحال السيئة الى مالا نحب ولا تحب الحكومة وأولو الأمر والاغنياء أن يكون !

وحبنا للسلام وللهدوء وللعدالة ، ووفاؤنا لمصر ولفلاحها وريفها ، وحرصنا على حياة الأمن والدعة والطمأنينة ، كل ذلك يدعونا الى الخشية والخوف من أن تذيع المباديء المتطرفة من الشيوعية وأبالسة البلشفية فى بلد آمن وديع كمصر ، وبين ناس يحرصون على الحياة المطمئنة الهادئة كأبناء مصر ، لاسيما أن المتطرفة والبلاشفة وأنصار الهدم والتخريب يبذلون جهودهم في ادخال مبادئهم وتعاليمهم وسمومهم الفتاكة بين أبناء هذا الوادي المبارك الامين ، ونحن نخشى كل الخشية في صراحة وشجاعة واخلاص أن تجد هذه النار الخامية في طريقها وقوداً تأكله ويزيدها اندلاعا وتوهجا ، نخشى أن تجد لها فى مصر وبين طبقة الفلاحين والعمال ومن اليهم أرضا رحبة تنبت فيها غرسها ونبتها ، وهذا الخوف وهذه

الخشية هما اللذان يدعوإننا الى ان ننادى عاليا ونناشد كل من يهمه أمر الوطن وشئون ابنائه أن يعملوا جميعا على منع هذه النار التي لاتبقي على شيء قبل وصولها أرض مصر ، وذلك بالعناية بشئون الفلاح وبحاجات العامل عناية تليق وما تطور اليه العالم وما استحدث على مصر الحديثه في عصر النور والحق والحريات المقدسة ، والفلاح والعامل هما أكثر الطبقات في كل أمم العالم وخصوصا في مصر استعدادا لقبول المباديء المتطرفة والدعوات الهدامة ورسالة التخريب والبطش والفتك !

واذا نحن نادينا وناشدنا أحدا فانما نادي ونناشد الحكومة أولا ثم الاغنياء ثانيا ، لأن هؤلاء جميعا هم المسئولون حقاً عن شئون الفلاح ومطالب العامل ، وكلا الطبقتين هما المنتجتان العاملتان حقا في حياة مصر الاقتصادية وثروتها الانتاجية !

قد حدثتك عن بعض المظالم والضرائب التى تنصب على رأس فلاحنا سواء من المالك المستبد أو من رجال الحكومة، ولقد أنسيت ان اذكر تلك المحاضر العديدة التي يحبرها المعاونون ضد هذا الفلاح المسكين لانه لم يحسن انتقاء زرعه من دودة القطن وأيضا عقوبات مخالفات الري ، وياليت هؤلاء المعاونين ورجال الزراعة مخلصون لوظائفهم في مصلحة الفلاح فيتفقدون بانفسهم راجلين الحقول والغيطان ليروا بعيونهم هم لا بعيون غيرهم ولا بآذان وألسنة الاشاعات والاقاويل ، ليروا محصول القطن ويقدروه تقديرا حقا قائما على

المشاهدة الحسية ، ولكنهم يقدرونه ويا للأسف ويا للحسرة وهم جالسون على مكاتبهم الجميلة وبين أوراقهم الرسمية المكدسة ، وأمامهم كوبات الليمون وفناجين القهوة ، وعلى روءسهم وحواليهم المراوح الكهربائية تذهب عنهم هجير الحر ، ثم بعد ذلك يقولون ان لنا وزارة زراعة مصرية فى حي من اجمل أحياء القاهرة وفيها مكاتب ودووابن ،وفيها موظفون ومفتشون،ومعاونون، ويوهموننا أنها وزارة الفلاح المصري ، وزارة الانتاج والثروة ، وزارة روح مصر وحياتها الاقتصادية، ويوهموننا أنها تعمل حقا لأسعاد الفلاح ولسماع شكواه ولزيادة الانتاج وتجديد الصنوف النباتية الزراعية وتحسين التربة المصرية ، وادخال ما ينقص مصر من أنواع النبات وما يتفق وتربتها وجوها !!

يمر العام كله تقريبا ولا يرى الفلاح المصري رجال الزراعة بين الحقول والغيطان الاندورا ، ثم لا يلبث أن يسمع أن الجرائد نشرت تقريرا بل تقارير وزارة الزراعة لتقدير محصول القطن تقديراً يوهم أنه حق وليس فيه من الحق قليل ولا كثير، تقدير قدر وكتب وحبر وجمع على المكاتب لا بين الحقول ، وتحت المراوح لا بين الفلاح !

نقول يا ليت رجال الزراعة يخلصون لوظائفهم فى تقدير القطن كل عام وفي سماع أنات الفلاح كما يخلصون لها اخلاصا كبيراً في كتابة المحاضر والمخالفات !!

ومن أعجب العجب أننا نعيش فى عصر يقولون انه عصر الحريات المكفولة والدساتير المصونة والعدالة الانسانية ، ثم لا نزال نرى بأعيننا الفلاح المصري يرسل عنوة وجبراً أو بقوة رجال الادارة والحكومة لحفظ مياه النيل ، فيذكرنا هذا بعصور السخرة وعهود الجبروت ، ومع ذلك أتحسب أن الحكومة تقوم بنفقاته بضعة الايام التى يقضيها المسكين ليقوم بهذه الرسالة ؟ ولكن الموظف الذي ينتدب ولو لأتفه المسائل تجود عليه الخزينة الغنية بالجنيهات وبالأوراق !

لقد كنا سمعنا قديما أن الحكومة تفكر في أن تكلف مقاولين يقومون هم بحفظ مياه النيل عند الفيضان على نفقاتها فتبطل السخرة ويستريح الفلاح الذي لا يعرف الراحة حتي يستريح الراحة الكبرى ! فأين آثار هذا التفكير ؟ والآن هل نقضي اعمارنا في بلد العجائب فلا نسمع عن مشروعات مستخرجة من معامل القول والخطب والوعد والتزويق ، حتي نسمع عن قبرها وموتها وهي جنين فى مهدها ؟ هل نقضي أعمارنا كالاطفال تضحك منا الحكومة التي نقيمها علينا بجهودنا وبدمائنا وبشبابنا بمعسول الامل وبكاذب القول وبحلاوة اللسان وأخيراً بروغان الثعالب ؟

يا رجال الحكومه أيا تكون حكومتكم ! كفى شفقة بالفلاح وحدباً عليه ! ارحموه من عدالتكم لانها أكثر من طاقته وأثقل من جهده لأننا نخشى أن يفدحه الحمل وتبهظه الرحمة والعدالة فيقع

صريعا مكدوداً ! من هذا الذي تنزلون به كل يوم من الارهاق والجور ألوانا ، ومن الحرمان والاسترقاق صنوفا ؟ أليس هو ذلك المسكين الذي يأكل خبزه من الحلبة والاذرة ، ويشرب الماء العطن الراكد فى المجاري وحول الجيف ، ويعيش على الزيت والمش والبصل ؟ ان هذا المسكين بجهله هو الذي تأكلون وتلبسون من غرس يده ، وتتريضون وتغازلون وتراقصون من جيبه ومن عرقه، هو يزرع وانتم تحصدون ، ويسهر وتنامون ، ويشرب الماء كدرا وتشربون المدام صافية والكأس مترعة متألقة ، ويموت بين الجوع والعرى وانتم بين الكأس وبنات الهوى ، أليس كذلك يا رجال العدالة والرحمة والانصاف ؟! ألا تعلمون بأن هذا المسكين ما كان ليتحمل كل هذه الضروب من الاعتساف والحرمان وهذه الحياة المظلمة النكداء ، لولا جهله الذي يدعه يصبر على الضيم ويرضى بالهوان ؟ وهل تعلمون انه لو ينال قسطه من العلم ونصيبه من النور والعرفان لأصبح يشعر بالظلم ويحس بالحال ، والشعور بالظلم كما تعرفون — لا الظلم — هو أساس المطالبة بالحرية ؟؟ !!

يا ذوي الاملاك ويا أصحاب الطين ! ان اشرف مافي الحياة العدالة ، وان ذلك الذي تنزلونه منكم منزلة العبد الأجير أو الآلة المسيرة أو الحيوان المسوق ، ان صبر على الضيم طويلا ، وان قضت ظروف العصور السود التي مرت به فى عهود الماضي المنكود أن تسكته عن طلب الاصلاح والعلاج لحاله

فانه الآن في تلك العصور المضيئة التي أتاحت لكل انسان أن يرى بعينيه حتى يعرف كيف يمشي بقدميه ، فى هذه العصور التي أوشكت فيها صروح الاستبداد والأسترقاق والأقطاعية أن تندك وتتبدد ، في هذه العصور التى خرجت بالانسانية من مجازر التعصب وعماية الجهالة ووحشية التعسف وأسر العبودية ، الى جلال التسامح واضواء العالم وسمو العدالة وفضاء الحرية ، فى تلك العصور عصور تحرير الفرد من قيود الجماعات وارهاق الحكومات وارادات المستبدين الحاكمين بأمرهم ، عصور جعل الامة مصدر السلطات جميعاً ، عصور محاولة الانسانية الى أن تزيل الاحقاد والاحن والخصومات ، لتعيش فى دعة وطمأنينة وسلام وأخاء وحب حتى تخرج خير ثمارها وخالد آثارها !

أقول في هذه العصور وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ، من القسوة كل القسوة أن نطلب من الفلاح المصري . . . . . الفلاح المصري الذي بقى الى الآن على ما كان عليه في عهود المماليك السود رغم وجود تلك الهوة السحيقة بين طبيعة كل من العصرين والعهدين وبين روح الجماعات واختلاف وجهات النظر الى الحياة في كل مرافقها ونواحيها ، من القسوة ان نطلب منه الا يشكو من هذه الحال ..... وقد رأى نفسه عبداً لمالكه وآلة لحكامه وفقيراً بائسا في حياته ، فعالجوا الداء قبل أن يستفحل ويعز عليكم الدواء ولات مندمة ولا ليت ! وانى لأخشى أن بذور الاستنكار

المر والشكوي الحارة التى أصبحت تتجاوب في كل صدر وتتموج في كل نفس وتجيش لكل خاطر ، أخشى أن تجد هذه البذور لها أرضا قابلة للنمو والازهار فيصعب اقتلاعها من جذورها أو القضاء عليها فى حقلها ، فاذا كنا أوفياء حقا لهذا الوطن غيورين حقا على مصالحه وراحة ابنائه ، عاملين حقا على أن يعيشوا في طمأنينة وأمن وسلام وحب وعدالة واخاء ومساواة ، فعلينا أن نعالج هذه البذور قبل ان تنبت وتزدهر وترعي ، وان نقتل الجنين فى بطن امه قبل ان يظهر الى الوجود ويتدرع بالمنعة والقوة ! والخطوة الاولى في رأينا لأصلاح هذه الحال وعلاجها ولتضمد هذه الجراحات الدامية هي التعليم ، فعلموا الفلاح قبل كل شيء وقبل كل خطوة في الاصلاح أو عملية فى البناء ، فأن جهله هوسبب شقوته وفقره وبؤسه واضطهاده وهو سبب شقاء مصر جميعا ، وهذا الجهل — اذا كنتم تذكرون — هودعامة السياسة الكرومرية وتكأة الاجرام الدنلوبي ، نعم فأن أصحاب الجلاليب الزرقاء كما كان يتغنى بذلك السيد كرومر عميد قصر الدوبارة ، هم الذين اتخذت منهم السياسة الاستعمارية وسائلها ووسائطها في البطش بالحرية وبالدستور ، وفى اخماد جذوة الوطنية والحماس القومي ، وفى تغيير وجهات الجهاد ونزعات ومطالب المصريين ، وفي حصر كل الجهود والاعمال فيمايسمونه الجهاد الداخلي أو السياسة الداخلية ، هذه السياسة الكرومرية ، المزينة بمعسول القول ورخاوة اللين لم تجد لها مرعى

خصيبا تنشب فيه اظفارها وتنبت فيه غرسها الا عند الفلاح ، الا عند أصحاب الجلاليب الزرقاء الذين اتخذوا من جهلهم ومن سذاجتهم شبه دليل على أنهم يرضون بحكمهم لا بل أكثر ! يفضلونه على الحكم المصرى والسياسة المصرية الوطنية !

فاذا علمنا أن أقدار الامم جميعا ونصيبها من الحياة المحترمة الموفورة الكاملة ، وان اتجاهات هذه الحياة أنما تقاس وتوزن بقدر نصيبها من هذا النور الشائع ومن المعرفة والثقافة الانسانية ، فيكون فلاحنا أشقى صنوف الانسان جميعا اذا راعينا هذه الفروق الكبيرة بينه وبين الطبقات الغنية الارستقراطية المتحكمة في مصر ، واذا راعينا العصر الذي يعيش فيه وتلك العزلة أو هذا الوضع الذي وضعته فيه الاقدار أو وضعته فيه الحكومات ورجال المال والطين ، واذا راعينا ايضا طبيعة وروح هذا العصر الذي ينفر ويكره أي لون من ألوان الظلام والاعتساف والحرمان من الانسان لاخيه الانسان !

هذا ولا أحب أن أدع الآن حياة فلاحنا قبل أن أقول كلمة في ناحية هامة من نواحي حياته : تلك هي الناحية الاعتقادية وان كانت « بسيكاوجية » أكثر منها « بيروجرافية »، ولقد حدثتك قبل الآن عن اعتقاده المفرط في « الاتكالية » ونسيت أن احدثك عن اعتقاده الكبير أيضا بالأولياء والصالحين المقربين ، ولست أجد عبارة أوفى وأجلى للمعنى وأوجز لتوضيح هذه الاعتقادية من أن اقول انه يكاد يقدم لهم فروض العبادة والتقديس ويرفع اليهم الصلاة،

فليس يتصورهم ناسا مثلنا لهم مالنا وعليهم ما علينا ، وتقلبوا في كل الاطوار « الجنينية » والبيولوجية مثل ما تقلبنا ، وانما يقوده خياله ويصور له تعصبه الاعتقادي ان هؤلاء السادة والأولياء ليسوا بشرا ولا من طينة الانسان ، فويل لمن يصيب أحدهم بكلمة تؤذيه في قبره وويل لمن يظنهم ناسا مثلنا لهم عينان وقدمان ويدان ، وخلقوا من طين وعاشوا كما نعيش الآن على هذه الأرض التي نتمثل فوقها رواية الحياة والتي ستسدل عليها أيضا الستار لتبدأ قصة الموت ، نعم ! ويل لمن يحسبهم يأكلون مثلنا وينامون ويشربون ويحبون ويكرهون ويخافون ويخجلون وينسون ويذكرون ويأتون أحيانا المنكر ويقضون حاجات نفوسهم مثل مانأتى وما نقضي جميعا !

واذا أراد أحدهم نجاح عمل له نذر لولي من الاولياء خروفا أو بقرة أو عجلا أو جديا ، فان نجح هذا العمل ظن بل أيقن أن هذا النجاح جاء به هذا الولي الكبير ، وان خاب وفشل أيقن ان هذا الولي مغضب عليه ناقم منه ، ولذلك فهو قد خيب مسعاه وأفشل أمره ، وما عليه أزاء هذا الغضب وهذه النقمة الا أن يترضاه بكل صنوف الترضي ، فينفق فى سبيل ذلك من المال الذي قد تكون داره وأولاده فى أشد الحاجات اليه ، ولكن رضاء الاولياء عنده فوق كل حاجة !

يدفعني التحدث عن هذه الناحية الاعتقادية في فلاحنا الى أن أتحدث قليلا عن طبيعة عقيدته أو جوهر أيمانه ، يلخص هذا الايمان

فيما نسميه « أيمان العجائز » ويتميز هذا الصنف من الايمان بالاستسلام التام وبالسكوت المطلق عن كل تفكير أو توجه أو بحث في المسائل الاعتقادية ، فما علينا الا أن نسير كما سار السلف وأن نعتقد كما اعتقدوا وأن نستسلم كما استسلموا ، وأن نقبل كل شيء راضين مطمئنين قانعين بدون بحث أو تفكير أو اجهاد أو اقناع أو جدل

ففلاحنا إذن أبعد الناس عن التفكير في الألهيات بل في كل المسائل الاعتقادية ، ولذلك هو أشد الناس سخطا وغضبا على كل من يحاول أمامه في مسألة تحوم قريبا أو بعيداً حول الشئون الدينية وليس له اذا سمع هذا الذي يتحدث في هذه الشئون الا أن يرميه بالألحاد ، والا ان يخرجه من الجماعة الاسلامية ، وكل هذا متفق مع طبيعة حياة الفلاح وعقليته، فليس في استطاعة كل واحد أن يفهم الأديان ويتجادل فيها ، ونحسب انه لن يهضمها ويتعرفها ويفهمها الا من أوتى حظا كبيراً من الثقافة والعلم ، فهؤلاء حقاً هم الذين يدركون ما نسميه بالفلسفة الدينية

وقد يكون هذا الضرب من الايمان (أيمان العجائز) أروح للنفس التي تحب الدعة وتجنح الى الهدوء والطمأنينة الى ماتعلم وتؤمن، وتكره البحث عما وراء العقل الانساني الغامض، وتخاف أن يذهب بها الشك بعيداً عن ضوء اليقين وساحة الأيمان فتعاني آلام التشريد وعذاب القلق ، فما لها تفكر وتبحث مع الباحثين فى طبيعة الآله وفي كنهه وقوته وفي كونه وملكوته وفي خلقه وعواله وفي ارادته

وحدودها وفى الأديان وتعددها والرسل وتعاليمهم والأنبياء ومذاهبهم ، وما لها تفكر فى الوحي اذا كان صدقا أو غير صدق ، أو في هذا الرسول أو هذا النبي اذا كان قد وجد أولم يكن موجوداً ، وما لها تبحث فى كيف خلق العالم ومن أين جئنا ، أو كيف يدبر الله الكون ويدير أموره ، وكيف تسيره قوته وتوجهه ارادته ، وما لها تجد نفسها فى البحث والتفكير في البعث والمعاد ، وفي الثواب والعقاب ، ما لها تكلف نفسها كل هذا وهي مؤمنة متيقنة بآله واحد يدير هذا الكون الواسع ، مؤمنة بأنبيائه ورسله جميعاً وباليوم الآخر ايمانا لا تحب أن تذهب فيه مذاهب التفكير لأنها في غنى عنها ! وخوفا من أن يضعف من ايمانها أو يذبذب يقينها وما يرتجي هذا الفلاح في حياته إلا أن يحصل له ولاولاده الرزق فى حياته ، ثم يعمل لآخرته بما يجعلها آخرة محمودة ونهاية مشكورة حتى يقابل ربه يوم المعاد بصحيفة بيضاء وبعمل مرضى ، ولأجل العمل لهذه الاخرة يقوم بفروض الصلاة التي أمر الله بها متقربا بها الى الله لتشفع له عما يرتكب ويأثم في حياته ، وتكاد هذه الفريضة أو هذا الصنف من المراسم التعبدية هو كل مايعرفه ويفهمه فلاحنا نحو الدين ، وأظننا نقسو كثيراً ونتطرف لوطلبنا منه أكثر من ذلك ونحن نعلم في أي ظلمات الجهالة يعيش ! !

هذا الاستسلام المطلق وهذه الطمأنينة الاعتقادية هما السبب الاكبر فيما نغبط الفلاح المصري عليه من قناعة النفس ورضى

الضمير اللذين نحسبهما بحق سعادة السعادات وتاج النعيم ، وسنعرف حين نتحدث عن نفسيته أن من أخص صفاته وخلقه القناعة ، وانها العامل الاكبر فيما نحسب له من نعيم وسعادة !

والآن نحب أن نتحدث عن خلق فلاحنا وعن نفسيته حديثاً لا ننقص منه ولا نزيد ، وأن نصورهما تصويراً يتفق والغرض الذي دفعنا الى كتابة هـذه الاحاديث ثم اذاعتها بين الناس ، تصويراً لا نحابي فيه ولا نكذب ، هو صورة ما نعتقد أنه حق ونؤمن بأنه صدق ، وحسبنا هذا الأعتقاد شفيعاً فيما نخطىء من تصوير ، ولسنا نبغي من هذه الاحاديث المبثوثة في هذه الاوراق كما قلنا قبل الآن ، إلا أن نصل فلاحنا المصري بالبيئات المدنية في عصر اتصلت فيه الامم وتعارفت ، ولم يتصل فيه الفلاح المصري بالبيئات المدنية المصرية فضلا عن البيئات العالمية فلا يزال يعيش في حقله وفي داره منفرداً بعيداً عن حياة المدن وحياة العالم جميعاً تجهله ويجهلها ، حتى أوشك هذا الفلاح المسكين أن يكون صنفا آخر من الانسان الذي نعرفه ونفهمه ، ونستمتع بخصائصه وحقوقه وتعاريفه، في عصر يجب الا يكون فيه إلا صنف واحد من الانسان كما أراد الله وكما شاءت القوانين !

أول ما يخطر ببال من لا يعرف الفلاح المصري انه رجل متوحش همجي شرير ، سفاك للدماء جاف الطباع غليظ القلب منكر الخصال ، هذه الصورة الكاذبة القاسية التي تصور فلاحنا فيها

جانب كبير من القسوة ومن الظلم ، وذلك لان ابتعادنا عن فلاحنا وعدم اختلاط كثير منا به ، وزهونا وكبرياءنا عليه ، وتفكيرنا واعتقادنا بأنه من أصحاب الجلاليب الزرقاء وحملة الفؤوس ، وبأنه مخلوق لا يعنينا كثيراً بأن نبحث في حياته وفي خلقه وفى وجوه اصلاحه ، كل هذا جعل تلك الصورة بعيدة عن الحق وعن العدالة ، ومن الاسف حقا بل من المخجل والمبكى معاً أن يأتي البعض فيقلل من خطر هـذا العمل الذي أخذت نفسي به ويصغر من شأن هذا الوجه من وجوه الأصلاح المصرى الذى أقدمت عليه ، وذلك لأنى قصرت جهودي واتخذت نصيبي من العمل والبناء وزرعت غرسى فى أرض يحسبها ويراها هذا البعض لا تجدر للزرع وللنماء ، وليست خليقة بأن تتعهدها بالاصلاح والحرث والري ، وفات هذا البعض الظالم أنه من أكبر الوصمات التي تلحق بفخارنا القومي اذا ما ذكرت كل أمة فخارها أن يبقي ريفنا وفلاحنا فى القرن العشرين وفى عصر النور والعرفان وتقرير الحريات ونصرة العدالة ، كما كانا فى عصور الجبروت وعهود السخرة والجهالة !

مسكين أيها الفلاح ! يظهر ان الأقدار لا يكفيها أن تعيش وتحيا هذه الحياة النكداء البئيسة وتحرم كل حقوق الأنسان وتكلف بكل أعمال الاستثمار والانتاج ، فهي تغبطك أيضا حتى على عين تذرف الدمع سخينا عليك ، وعلى قلم يتحرك حدبا بك ! حتى أنصارك وحماتك أيها الفلاح أعداء القدر !

نعم ! تكاد الصورة التي يتصورها كثير منا عن فلاحنا تتلخص في الهمجية وفى الشر والسفك ، ونكاد لا نعرف عنه سوى جوانب الشر ، أما الجوانب الأخرى البيضاء فنجهلها كل الجهل أو لا نحب أن نعرفها ازوراراً وصلفاً وعتواً ، وذلك لأن المدنية الغربية غمرتنا عقلا وقلباً ووجوداً واحساساً ، وأبعدتنا عن الركون والحنين الى جمال البساطة وجلال البداوة والشفقة على الفقراء والرحمة بالبائسين ، فأفسدت علينا قلوبنا وحواسنا بما انتزعت منا خير ما يشرف انسانيتنا ويسمو بها : الرحمة والوفاء !

واقد تكون العلة الاولى والباعث الاكبر في ابتعادنا عن الفلاح وعن خلاطه ومعاشرته ومجالسته واحتقار الكثير له هو بكل أسف جهله وعدم تحضره الذي يتسبب عن جهله ، ولكن هل هو الذى ارتضى لنفسه الجهل وعدم الحضارة ؟ هل هو الذي حبس نفسه في هذا السجن المظلم بعيداً عن النور وعن الحق وعن الجمال ؟ وبعبارة أخرى هل هو الذي اختار لنفسه أن يكون عبداً لمالكه أسيراً لحكامه فقيراً بائسا محروما ؟ ليس المسكين هو الملوم وليس هو الذي يريد لنفسه عار الجهالة وذلة الغباء ، ولكنهم أنكروا وجوده وسلبوه حقوقه وألقوه فى غيابات الجهالة لئلا يفتح عينيه فيرى النور ويبصر الحقيقة ويعرف العالم والموجود !

ولكنا — في سبيل الحق وحده — لا نريد أن ندع هذه النقطة تمر بدون أن نحمله نصيباً من اللائمة الى حد ما وان تك

خارجة حقا عن ذاتيته وارادته المجردة ، فان العصور السود ـ كما قلنا ـ التي مر بها الفلاح المصرى وأخصها عصر المماليك المنكود قد أورثته الاستكانة وحببت اليه الاخلاد الى الكسل بما يقرب من الرخاوة تجاه حقوقه ومطالبه ، وأورثته الذلة والخضوع حتى ظهر الجهل فيه بثوب البلاهة ، ولا يزال هذا الميراث يتوارثه الابن عن أبيه عن جده ، حتى كأن الجهل أصبح لديه لذة لا تعدله لذة ، وحتى أصبح طلب العلم عند الكثير منهم أمراً نكراً ويكاد يكون الحادا ، فكثيرا ما نرى بأعيننا ان الطفل فى القرى لا يخرج الى الكتاب إلا باكيا من الضرب ، وإلا مكتفا أو مشدوداً حتى لا يعبث برجليه من الجماح والغضب ، وكثيراً ما نرى ان الاب يرسل ابنه للكتاب أو للمدرسة ، فاذا ضربه الفقيه أو (الشيخ) أو المدرس ولو ضربا خفيفا لانه لم يقم بواجبه ، ذهب الولد باكيا منتحباً الى أمه شاكيا الشيخ او المدرس اليها ، فتأخذ هذه الام فى لعن المدرس أو الشيخ وفى استنزال الغضب والسخط على العلم الذى من أجله يهان ابنها العزيز وتجرح كرامته وتدمع عيناه ، وهنا تمنعه مطلقا عن الذهاب الى الكتاب أو المدرسة ، والاب بما انه لا يدرك قيمة العلم يترك ابنه يتربى كما يتربى هو بين الحقول وعلى الاكوام خيراً من الكتاتيب أو المدارس ، وخصوصا لانه ينتفع منه في استخدامه معه فى العمل ومساعدته ، وخير له أن يرى ابنه يتدلل على ركبتيه فى قذارته البالغة أقصى مراتب القذارة ،

من أن يرسله بعيداً عنه للكتاب أو للمدرسة فيحرم رؤيته واستخدامه معه ، وكم من مرة لاحظت في مشاهدتي وأنا في الريف أن الأب يرسل ابنه للمدرسة أو للكتاب ، فاذا حدث أن الابن مرض وهو في غضون الدراسة تستدعيه الأم اليها ليبقى بجانبها وليلعب على ركبتها وتمنعه عن الذهاب إلى الكتاب أو المدرسة التي سببت مرضه وابعدته عنها ، وهكذا يضيع جانب كبير من ثروتنا العلمية،وهكذا كم يدفن من درر وجواهر في التراب أصبحت بفضل الاهمال احجاراً مبعثرة على الأكوام تلهو بها الصبية والغلمان كان ينقصها لأن تكون جواهر ودرر تبعث النور والقوة والعظمة يد تنفض عنها ترابها وتخرجها من رمالها ،وتتعهدها بالحفظ والرعاية والصقل والتهذيب ! وهكذا يقضي على نبوغ عدد كبير من اطفالنا وشباننا وهم لا يزالون بعد في مهاد العلم وأولى مراتب التثقيف والتهذيب ، مابين بلاهة الأمهات وغباء الآباء !

لا يمكننا ان نعرف نفسية الفلاح معرفة حقة قائمة على الصدق الا اذا درسناها درسا عمليا وعاشرناه، حتي يظهر لنا الجانب الابيض والجانب الاسود فيه ، وإذا فعلنا ذلك كنا قضاة عدولا !

لعل أبين ظاهرة خلقية في فلاحنا هي « القناعة » كما قلنا حينما تحدثنا عن حياته ، وسنرى حين نتحدث عن سعادته أن هذه القناعة وهذا الاطمئنان الى ما يعلم هما سر راحة باله واسعاد فكره أمام ما يعانى من آلام وما يكابد من ضنك وحرمان وبؤس ، فهو يقنع

بكل شيء قل أو كثر ، ويرضى بما يكتبه الله له من نصيب وقسمة ورزق . سعادة كانت أو شقاء ، فاذا كان كل شيء مصدره الا آله ومرجعه الى الخالق فليس علينا كعباد له مخلصين مؤمنين الا أن نرضى ونخضع لارادته فينا وحكمه علينا ، فهو تعالى مصدر الخير ولا يصدر منه الا الخير ، ولا يقصد بنا الا الى الخير ، فمن الخير اذن أن نرضى بكل ما قسمه لنا من نصيب في الحياة ، ومن الخير أن نحول آلامنا بأنفسنا الى لذات وان نجعل من الشر خيراً ومن المنكر معروفا ، وأكبر سعادة لنا هي ان نقنع بما بين أيدينا وبما ينزل علينا من عند الله ، لأنه تعالى هو الذي أراد ذلك لنا ، اذ ليس في أيدينا وسيلة ما الى تحقيق مطامحنا بأنفسنا ، فاذا كنا عاجزين هذا العجز فمن الحكمة أن نقنع ومن حسن الرأي أن نرضى بمقدورنا ونخضع لمصيرنا ، ولعل غدنا يكون أكثر توفيقا ويمنا من يومنا ، ولعل يومنا يكون أحسن حالا من أمسنا ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ويجعل من العسر يسراً ؟

هذه النفسية الراضية القانعة بكل شيء في الفلاح هي التي تجعله دائما راضيا وديعا متفائلا مغتبطا ، فان أصابه ضر أو ضيم أو أصاب زرعه وبال أو خسر ، لا يتبرم ولا يتضجر لأنهما ينافيان الخضوع لكل ما يأتي به الله ولأنه لا يجديه الضجر أو التأفف ، ولكنه بدلا من هذا يحمد الله على السراء والضراء والبؤس والنعمى وعلى الخير والشر على السواء ، فاذا فجع في ولد له عزيز عليه لم يذهب به الحزن والأسى

ما يذهبان بسائر الناس من عويل ونباح وشبه ذهول وضعف ايمان، وانما يسلم نفسه الى الله ليهبه السلوى ويمنحه العزاء ويوليه الصبر، واذا أصابته مصيبة لا يسعه الا أن يفوض أمره الى الله ، ويقول لنفسه: لعلي فى غدى أكون أحسن توفيقا واسعاداً منى فى يومى وأمسي ولعل ذلك نتيجة غضب الأله عليّ لذنب اقترفته أو جرم اجترمته فاستحققت هذا الجزاء !

هذه النفسية الراضية الهادئة المستسلمة كما قلنا قبل الآن هي أحسن مافى فلاحنا من خلق وهي التي يحسد عليها حقا ، وسنرى انها « ونعيم الجهالة » هي سر وسعادة هذا الفلاح سعادة تعز على الكثيرين ، ولعل السبب الحق فى عدم قيام هذا الفلاح فى وجه ظالميه والخروج عليهم بالعصيان ، في العصور الماضية الدابرة . هو هذه النفسية الراضية المسالمة الناعمة القانعة المطمئنة راغبة اومكرهة الى ما تعيش ، هو هذه الظاهرة الخلقية الفذة التى تهيمن على كل وجوده وتؤثر في كل حياته، ولذلك عرفها حكامه وملاكه فاستغلوها واستخدموها في أذلاله وأرهاقه ، وحسبوا الرضي بلاهة والقناعة سذاجة ، والاستسلام مسكنة وذلا وعجزا ، والصمت والسكوت قبولا للذل ورضي بالهوان ! !

سبق ان تحدثنا عن اعتقاد الفلاح وسمينا ايمانه «ايمان العجائز» والآن ما دمنا نتحدث عن نفسيته أو عالمه الباطنى بمعنى أدق ، فنحب أن نذكر كلمة عن هذه الاعتقادية سواء أكانت دينية أم

غير دينية ، الفلاح أكثر الناس محافظة على دينه كما يتصوره ويفهمه فأغلى شيء يحرص عليه ويذود عنه ولو بالمهج والارواح هو دينه ، ولذلك يكره ويتعصب ضد كل من على غير دينه من أصحاب الأديان المنزلة الأخرى وغير المنزلة ، ولعل التعصب من أجلى الظواهر الخلقية المبينة في خلقه وفي اتجاهاته ، ولكن هل نطلب من نفس جاهلة لم يهذبها العلم أن تخلص نفسها من جهالة التعصب لتعيش في نور التسامح ؟ اذن لنكونن قساة ظالمين لا نفهم طبيعة الاشياء !

ولما كان الدين والمحافظة عليه أكبر شاغل يشغل الفلاح كان لذلك أكثر الناس خلطا لكل شيء ولكل مسألة بالدين ، وهو يراه كل شيء في الحياة وكل ما سواه باطل وافك . وربما يعلل خوفه من التعليم بهذه العلة فانه يخشى أن يضعف العلم من دينه أو يبدد يقينه لانه يسمع من بعض رجال الدين وأصحاب العمائم الكبيرة الذين سماهم يوما ما أحد كبار أدبائنا « برجال الكهنوت » والذين خشى المرحوم الامام أن يقضوا على هذا الدين بجهلهم وعمايتهم ، يسمع منهم كثيراً بأن العلم والدين لا يمكن أن يتآخيا معاً ، فاذا حضر أحدهم يجب على الآخر أن يغادر المكان لان الارض الواحدة لا تسعهما معا ، واذا علمت ان أمثال هؤلاء المتعالمين كثير في ريفنا ويعيشون وسط فلاحنا المسكين ، فلا تلم هذا المسكين اذا صدق دعواهم واطمئن الى قولهم وكذبهم ، لانه يتصورهم خلفاء الله في أرضه ويتصور كلامهم من لدن عزيز حكيم ،

وأين تذاع وتصدق وتنجح سبل الاحتيال والنصب وطرق الخديعة والكذب في خير من ربوع الجهالة وأمكنة السذاجة ؟ ؟

وحرص الفلاح على دينه ومحافظته عليه وتعصبه له ملائم كل الملاءمة للبيئة التي تحوطه ولظروف العيش التى يعيشها ، فهي بيئة كما رأينا هادئة ساجية ، فيها يبدو السكون أعظم ما يبدو ، وتظهر اللانهاية على خير ما يمكن أن تظهر ، وهذا الهدوء يساعد الى درجة كبيرة على التعبد وعلى التفكير في عظمة الخالق وسعة الكون وسر اللانهاية وابداع الوجود ، ونستبيح لنا أن نقول أكثر من ذلك : أن نقول أننا يمكننا أن نرى الله فى الريف خيراً مما نراه في المدن !! ولسنا نحب أن نتوسع في هذا المعنى فلقد أتينا بما فيه الكفاية على ما نظن حين تحدثنا عن الريف وعن صلته بالعبادة وبالتقديس وبالحق وبالجمال !

تلك هي العقيدة الدينية للفلاح بوجه الأجمال ، فما هي العقيدة القومية أو الوطنية له ؟ يؤلمنا أن نقرر هنا فى غضون وتضاعيف هذه الرسالة حقيقة لا ينكرها الا مكابر ، وهي ان القومية المصرية لم تأخذ بعد شكلها الثابت ولم تتركز بعد فى أذهان المصريين تركيزا واضحا منظما مدعما ، واذا كنا نتحدث عن الفلاح فقط فنقول انه بحسب ظروفه وطبيعة وجوده لا يدرك شيئاً لمعنى « القومية » أو لمعنى « المصرية » ، فأحيانا يخلط بين هذه « المصرية » با « لتركية » وأحيانا أخرى با « لعربية » ، فهو اذن يخلط الاعتبارات الدينية

دائما بالاعتبارات القومية ، ولا يزال للآن يقول لك نحن « أولاد عرب» ولا يزال الـكثير يتمسح بالترك «وبالدولة العلية» ويتعصب لها ، ولا يزال الفلاح اذا سألته : ما جنسيتك ؟ يجيبك : من المنوفية أو الغربية أو أسيوط ولا يخطر بباله مطلقا انه من « مصر » ، هذا القطر المعروف بحدوده المعروفة ، ولا يزال للآن يفهم أن أصله يرجع الى « العرب » وأن تاريخه يبدأ بتاريخهم ، ولسنا ندري الى الآن مدى تأثير هـذا الخلط الذي نخشى أن يفضي إلى ضياع قوميتنا وسط هذه الجهالة والعماية ؟ ومن المؤلم حقاً أن تسمع من الفلاح الذي ينتقل من مديرية إلى أخرى لأسباب معيشته أنات الشكوى والحنين لوطنه الذي فارقه والذي يعـد نفسه غريبا فى الجهة التى انتقل اليها ، فهو إذا كان أصله ومولده في المنوفية ، وعاش في البحيرة ، حسب نفسه غريباً عن الوطن كما يحسب المصري نفسه غريبا في فرنسا مثلا ، ويأخذ في التألم والتوجع واسترجاع الذكريات ، والحنين المبكى أحيانا

هذا التخلخل في الشعور بالوطنية الحقة والاحساس بالمصرية العريقة الخالصة ، وهذا التوزع المبدد للجنسية ، يلاحظ بأجلى وضوح لدى فلاحنا الذي لا يفقه معنى قومية ولا يدرك معنى « مصرية » وبالتالي لا يقدر لنفسه « ذاتية » خاصة معروفة !

ونحب أن نذكر هنا في سبيل الحق وحده أن الفلاح أبعد الناس عن طرق النفاق ووسائل الزلفى وأساليب الاحتيال ، فما الذي يدعوه

الى النفاق والتمليق إذا كان القدر قد كتب عليه ان يكون بعيدا كل البعد عن حكامه ، ثم لماذا يرتجى منهم من الخير والمعروف ، وهو يعرف حق المعرفة انه مهما نافق وتزلف فان قلوبهم التى قدت من الصخر واقتطعت من الحديد ، لن تخفق بالشفقة عليه والرحمة به ، وفضلا عن ذلك فانه قد ورث هذا الابتعاد والخوف والرهبة من الحكام والملاك الظالمين ، وأصبح فيه كل هذا غريزة أنماها الزمن وقوتها العصور المتعاقبة وأساليب الحكم المتعددة ، حتى أصبحت العلاقة بينه وبين حكامه وبين ملاكه علاقة نفور وعزلة ورهبة بدلا من أن تصبح علاقة حب ووئام ورغبة ، ونتج عن هذا النفور وهذا التباعد أن تربي فيه روح الجمود والجبن والخضوع ، والاعتقاد بأنه لا يرتجى له اصلاح أو خير من حكامه وملاكه ، حتى أصبح لا يقابل اشاعات الاصلاح المزعوم وكثرة مستخرجات معمل « المشاريع » الا باسما ساخراً هازئا بل يائسا ، وذلك لأن هـذا الاعتقاد أو بمعني أدق لان هذا اليأس من اصلاح الحال ومن تغيير نظام معيشته ، أصبح جزءا من حياته وشطرا من وجوده ، وأصبح يهيمن عليه ويتملك عليه كل أموره لدرجة انه يكاد يتصور انه دون الناس جميعا قد قدر له البؤس والفاقة والحرمان ، وانه كما ولد محروما مسكيناً جاهلا ، وكما يعيش مكدورا شاكيا بائسا ، فسيموت أيضا فقيرا مهملا منسيا ، ولذلك فالأوفق له أن يبقى على ما هو عليه

وان يرضى بنظام حياته ، سواء أكان نظاما محمودا أم مذموما ، قانعا مكرها بذله وبضيمه وجهله

ومن الحرص على تقرير الحقيقة هنا أن نقول ان فلاحنا المصرى يعيش ما يعيش غير شاعر بالحاجة الى الاصلاح شعورا قويا محددا منظما ، فان الظروف التي يعانيها والبيئة التي يعيش فيها ، وشعوره الوراثي الذى ورثه عن آبائه وأجداده فى عصور العسف والجبروت والظلام ، كل هذا جعله لا يعرف من جوانب الحياة الا جانباً واحدا هو الذى يسير فيه وعليه وبه ، فاليأس المستمر جعله يجهل تصوير الامل ، والجهل المطبق الذى يعيش في ظلماته دعاه لا يعرف تقدير العلم ولا يشعر ببهر النور ، والحكم الاستبدادي الذي عانى ويعاني ظلمه وارهاقه أفقده تقدير العدل ، وظروف البلاد السياسية بما تخللها من نير الاحتلال وبطش الاستعباد أبعدته عن الشعور بمعني الحرية والجهاد لها وفهم مداها وسامي غرضها ، لدرجة انه يخيل الينا أنه أصبح في هذه الحال الشعورية الغامضة المضطربة المبهمة لا يميز كثيرا بين العلم والجهالة أو بين اليأس والأمل أو بين الاستعباد والاستقلال ! وليست اللائمة كما قلنا كثيرا فى ذلك تقع عليه هو بالذات، وانما على الحكام والملاك الذين أنكروا أو احتقروا وجود انسان له من « حقوق الانسان » نصيب محترم لا يقبل التبديد أو الاستلاب ،وانما على تلك الظروف السياسية القاهرة التى نكبت بها البلاد طول تاريخها وحياتها ، وانما أخيرا على الروح

الاجتماعى الذي تجاهل الى الآن هذا الصنف من الانسان ولم تأخذه فيه عاطفة انسانية نبيلة تحرك الشفقه عليه والرحمة به.

سيقول القائلون: اتنكر نصيب الفلاح في النهضة الكبري وفى الثورة القومية التي برهنت أنه يقدر حقا — بخلاف ماتقول — معني الحريات والاستقلال؟ وليسمع لنا هؤلاء القائلون المستقبلون بأن نقول لهم اننا نقرر معهم فى فخار يرفع رءوسنا وفي عزة تعلى كبرياءنا نصيب الفلاح الأكبر في ثورتنا وفي الدفاع عن الحرية، ولكن نقرر فى سبيل الحق وحده بأنه لم يكن اندفاعا لدنيا بحتا مصدره الشعور الحق، الشعور العالم المبصر المقدر، لم يكن اندفاعا ذاتيا فردا يشعر فيه كل انسان باحساس باطني قوي يحفره إلى ادراك وتنفيذ ما يريد وما يشعر، عن فهم وحسن تقدير وتبصرة ونفاذ رأي وشعور بنقص وحاجة الى الاصلاح، وانما كان اندفاعا مجموعيا شعبيا، مصدره التيارات الشعبية وروح الجماعات التى هي الى التقليد أكثر منها الى أي شيء آخر!

لم يدعنا الى هذا التقرير الذي يحسبه البعض مرا والذي نعتقد فيه بحق، الا حرصنا الكبير في تصوير فلاحنا تصويرا يرضي الحق والضمير والواقع، والا حرصنا على أن نقرر بأن سياسة الحكام والملاك في مصر وسياسة الظروف القاهرة أيضا اشتركتا معا في تكييف فلاحنا هذا الكيف الذي نشاهده ونلحظ آثاره ونتائجه، ونحن نبكى من الألم ونتحرق من الحسرة لحاله ولحياته التي لا يمكن أن يرضى بهما

انسان يحمل هذا الاسم السامي وهذا المعنى النبيل ، وتحركه نحو اخيه الانسان ولو أبسط عوامل الرحمة وصنوف الشفقة !!

ولقد يكون من تحصيل الحاصل كما يقولون أن نقرر هنا كرم الفلاح المصري وبذل كل مافي طوقه واستطاعته لأراحة وارضاء أضيافه ، ولسنا نذيع بدعا أو نبالغ في الادعاء لو قلنا أنه أكثر من أخيه المصري المدنى نصيبا من الجود وقسطا من الكرم الذي كاد يصبح غريزة من غرائز وخلة من خلاله وسمة من سماته ، ولا بدع فى ذلك فقدما كان الكرم ولا يزال من خصائص الشرق وبخاصة الكرم المصري الذي نعتقد أنه جعل مصر نهبة للطامعين وتكية للمعوزين وملجأ للمتشردين ، والذي جعل من المصريين قوما « طيبين » كرماء لضيوفهم ، كرما فهمه المستعمرون ورجال المطامع والاغراض ضعفا ووداعة وطيبة ينفذون منها الى ما يريدون ويطمعون !!

والجمال ! ماذا يكون شأنه عند فلاحنا مادمنا نتحدث عن « عالمه الباطنى » ؟ اذا كان الفلاح ما شاهدنا من سذاجة ومن جهل ومن فقر بالاستمتاع بالحياة والشعور بالوجود والحرمان من الخضوع لسلطان الجمال القاهر ، فلا ننتظر مطلقا ان يكون له ذوق خاص محدد في الجمال ، او بمعنى آخر ان يكون له سياسة أو ثقافة منظمة محكمة في تقدير الجمال ، ففلسفة الجمال لو شئنا أن نسميها كذلك بسيطة عنده جداً ، تكاد تقوم على الالوان لو احببنا أن نحصرها ونحدد حدودها ، وهل تريد

من شخص لا يعرف من الوجود الا ظاهره ومن العالم الا جانبه الخارجي المرئي المحسوس ، والا ان يحصر معرفته وشعوره فى الناحية الظاهرة المحسوسة من الوجود ، الناحية المادية التي ينتفع منها ويبصرها ويعرفها وتغذي استعداده وميوله وشهواته جميعا ؟ فالمرأة الجميلة عنده المرأة البيضاء او السمراء ، البدينة او الهزيلة ، التي لم يخلق جمالها في هذه الأرض وفي هذا العالم الا لتشبع شهوات الناس ، وترضى حاجاتهم الدنيا .

واذا ذكرنا الجمال فهل يخلق بنا أن ننسي الحب ؟ ومتي كان الجمال والحب منفصلين ؟ او ليس الجمال هو أساس الحب واننا لا يمكننا مطلقا أن نحب شيئاً ما الا متي استجملنا فيه شيئاً يدعونا الى الميل اليه والاعجاب به ثم بحبه ؟ واذا كان الجمال كما رأينا عند الفلاح فما حال الحب لديه ؟ واذا كانت المقدمات فى القضايا المنطقية يجب ان تنتج نتائج تتفق واياها ، فهل يكون شأن الحب عند الفلاح غير شأن الجمال والاثنان من دم واحد ومن سلالة واحدة ؟

واذا كان كل ما يعرفه ويفهمه ويتذوقه من الجمال هو الجمال الحسي او بمعني أدق « الشكلى » على حد التعبير القانونى فهل يكون الحب لديه أيضا غير الحب الحسي الذي لم ينل نصيباما من « الملائكية أو السماوية » بل كله من « الانسانية أو الأرضية » لو صحت هذه التعابير ؟

واذن فلنا أن نتساءل : هل يدرك الفلاح معنى الحب ؟ تطرف منا ولا شك أن نطلب منه أن يفهم الحب كما نفهمه ويقدره كما نقدره

الحب هو سر حياتنا بل هو غذاؤها بل هو لب لبابها ، بل هو أنبل ما فيها وأسمى رغم مكابرة المكابرين وانكار المنكرين ، والا فماذا تكون هـذه الحياة اذا جردناها من الحب ؟ انها تكون ولا شك مهزلة الصبية ولعبة الاطفال ، بل ماذا يكون الجسم اذا انتزعنا منه القلب ؟ انه يكون خرابا ينعق فيه الغربان ! نحن نحب ولذلك نحن نعيش ونحيا في الحب ومن الحب وبالحب ! وليس الحب كما يتصوره بعض الفارغين الذين حرموا « الروحية » والملائكيه ، والذين عاشوا ويعيشون طوال حياتهم فى المادة والنفعية ومن أجل المادة والمنفعة وحدها ، وانما هو كما قال (تاجور) كمال الشعور بالنفس ، أو كما يقول (لامارتين) « لم يخلق الانسان إلا للحب ، فهو لا يشعر برجولته وانسانيته الا يوم يشعر حقيقة انه يحب » !

فأين للفلاح اذن ادراك الحب هذا الأدراك وتصوره هـذا التصور ! ولـكن أنسيت ! هو يفهم الحب ويدركه ، لأنه أحيانا يحب ، ولـكن أي حب وأي شعور بالحب ! ذلك الضرب الخبيث المنكر من الحب ، الحب الذي يستقي منابعه ويستلهم وحيه من شهوات النفس الجسدية ونزواتها الدنيئة ، ذلك الصنف من الحب الساقط الذي يعيش على استمتاع الجسد وحـده واشباع النفس

وحدها بأحط أغذية الهوى فاذن هو يتخذه وسيلة لا غاية ولهواً لا مثلا اعلى ، واشباع جسد لاغذاء روح وقضاء شهوة لا فناء الحبيب فى الحبيب ، فناء اندماج لا فناء اتحاد فقط ، ولا سعياً وراء الكمال الانساني وكمال الوجود من طريق الحب ! !

ومن الطبيعي الا تنتظر أن يكون زواجه قائما على دعامات الحب من الطرفين المتعاقدين أو يقصد به الشركة الروحية والصلة القدسية الطاهرة بين الزوجين الشريكين المتحابين المكمل أحدهما نقص الآخر ، الفاهم المدرك كل منهما وظيفة وحقوق الآخر ، ولسنا نحب الآن أن نتبسط معك في هذه المسألة ولكننا نرجئها الى حين نخصص الحديث عن الريفية كما أخذنا على أنفسنا أن نتحدث عن الريفى !

ومما نحب أن نقرره هنا بمناسبة هذه المسألة اننا لا نحكم على الفلاح وحده هذا الحكم من حيث النظر والأدراك لمعنى الحب وتقدير الجمال ، بل نشرك الكثير جداً من أبناء مصر فى هذا الحكم ، فلا يزال الكثير منا ينظر الى الحب والى من يحبون فتيانا كانوا أو فتيات ، نظرة الفاسقين المرتكبين أمرا فيه عار ووصمة ، ولا يزال الكثير جداً لا ينظرون الى الحب ولا يدركونه الا بقدر مايشبع نفوسهم ويغذى جسومهم ويرضي شهواتهم الجسدية ، ويقولون لمن يتحدث عن الحب المخالف لذلك : انك خيالي أو انك شاعر لا تعيش فى الأرض بل فى السماء ! وكثير جداً منا أيضا

من لا يزال يلوم ويقرع كل من يجده يقرأ فى كتاب أو رواية تتحدث عن هذا الحب الذي نقصده بالذات مهما سمت معانيها ونبلت مراميها ، لأن الحب عندهم محرم ، والحديث فيه محرم ، والذي يحب عاطل لا عمل له ، وهكذا يريدون أن يعيش الناس في أديار أو صوامع ، أو ينزلوا بأرواحهم من سماواتها لتعيش فى أرضهم ووسط عالمهم الذي يقوم على عبادة الجسم وحده وعلى اهمال القلب وتجاهل الروح !!!

واذا حدثناهم برسالة المرأة في هذا الوجود ، المرأة الكاملة الجميلة المثقفة المريدة ، أو بقوة الحب الخالقة أو الباعثة ، فما أسهل أن تجرى على ألسنتهم : شعراء ! كأن الشعر مستودع الكذب ومنبع الافك والبهتان في هذه الحياة في هذا البلد !

***

يسمع كثير منا فى المدن عن الفلاح انه شرير سفاك ، أبعد الناس عن الخير والشفقة ، وأكثر الناس تعطشا للدم وللشر ، ولا شك فى أن هذا الحكم جانباً كبيرا من الظلم على هذا المسكين وقد يطغى الشر على الخير فلا يذكر الناس الا الشر وينسون أو يتناسون الخير ، والشر كثيرا ما يذكر والخير قليلا مايتحدث عنه كما يقول العظيم شكسبير !

لا يمكننا مطلقا أن نقول ان الفلاح بعيد عن الشر ، فقد يكون هذا اسرافا منا دونه أي اسراف ، بل انكاراً للحق دونه أي

انكار ، ولكننا نقول أن هذه الصورة التي تنقل الينا في المدن عن الفلاح المصرى قد كبرت ولا شك ، وفيها نصيب كبير من البعد عن الحق وعن العدالة

كل منا في هذا الوجود مركب من عنصرى الخير والشر ، بمقدار يختلف ضعفا وقوة وقلة وكثرة ، ولا يمكننا مطلقا أن نعمل على محو الشر فى الوجود والغائه من عناصر الانسانية اللازمة ، فهو عنصر ضرورى للحياة ، لكمالها ولنظامها ورقيها وحفظها ، ولقد قال (تاجور) في هذا المعنى : «سؤالنا : لماذا كان الشر في الوجود ، هو نفس سؤالنا لماذا كان النقص ، أو بمعني آخر لماذا كانت الخليقة جميعا ؟ »

ثم ما لنا ننظر الى الشر هذه النظرة القاسية الخاطئة ؟ فهل كان يكون للوجود بغير جوانب متضادة وظاهرات متعاكسة وأوجه متقابلة ؟ ان هذا التقابل أو هذا التضاد هو السر في ضبط نظام الوجود وتوازن الانسانية الدقيق المحكم ، هو النغم الرقيق الهادىء فى موسيقاها الخالدة ، الناتج من ضرب أوتارها العديدة المختلفة

اذن ليس الشر الا ظاهرة من ظاهرات الوجود الضرورية كان لا بد منها ليبقى للوجود قوته وانتاجه وجماله وتوازنه ، وليس هو من الوجهة الفلسفية البحتة الجهة المضادة للخير ، كما ان النقص — كما يقول « تاجور » ليس هو نفي الكمال أو ان النهايه تضادها

اللانهاية ولكنها جميعا ، ليست الا كلا يبدو موزعا ، واللانهاية تظهر في خلال حدود وتخوم !

لا الخير ولا الشر غريزة فينا كامنة في نفوسنا من يوم ان ولدنا وظهرا في هذا الوجود ، وليس الانسان طيباً بطبعه كما يقول صاحبنا (روسو) حينما أراد أن يبرىء أخاه الانسان من الاستعداد للشر ويسند كل هذا الى الاجتماع الذي أفسده بعد صلاح ، وفي هذا ولا شك اسراف أي اسراف من صاحبنا (روسو) الذي أراد أن ينسب كل الشرور الى المجتمع الأنسانى حتى اشتط في الاتهام وسوء الظن وكاد أن يؤله الانسان وينزهه عن الخطايا ويعصمه من الشرور ، ولذلك نصحه بالركون الى الطبيعة وحدها ففيها النجاة من الشر ومن الرذيلة ، ثم قال اننا ما صرنا الى ما نحن عليه الآن الا لبعدنا عن امنا الطبيعة فنحن فى الاصل أخيار والجماعة أو المجتمع هو الذي جعلنا أشراراً !!

يريد روسو منا أن نكون فى مثل وحدة حي بن يقظان أو روبنسن كروزو . فهل لو تأتى لنا هذا اللون من الحياة نكون سعداء كما يصور لنا روسو ؟

وهل اذا أمكننا نحن أن نهرب من المجتمع الانساني وأن نركن الى الطبيعة وحدها ، فهل نكون في هذه الحالة قادرين على تحقيق آمالنا وبلوغ أطماعنا ؟ ليس المجتمع وحده هو الذي يفسدنا بل نحن شركاء أيضا في الجريمة ، وليس المجتمع هو الذي يدعونا اليه

بل نحن الذين نسعي اليه ونلح في السعي ، لأننا لا يمكننامطلقا أن نحيا حياة راضية انسانية محترمة بعيدين عن الاجتماع الانساني

يقول روسو ان عنصر الخير هو الاصل فينا ، أما عنصر الشر فعارض جديد ونزيل علينا ، وفي الحق حسبما نعتقد ونؤمن اننا لسنا أخياراً في الاصل كما يقول روسو ولا أشرارا أيضا كما يريد البعض أن يقول ، واننا يوم نولد ونظهر في هذا الوجود لا نعرف ما هو الخير ولا ما هو الشر ، ولكن المسألة اننا نولد ومعنا غرائز تنمو معنا وتكافح معنا الحياة كما نكافح ، وهذه الغرائز ليست الا قوى نستعين بها على العيش وعلى الحياة ، وهذه الغرائز دائما فى كفاح مع بعضها وفى تفاعل مع اخواتها ، وتتنازع على البقاء كما يتنازع الاحياء جميعاً فالاقوى منها يتغلب على القوى ، والقوي يتغلب على الضعيف ، وهذه الغرائز ولا شك تتكيف وتتوجه وتتلون بحسب روح الجماعة وبحسب التربية وبحسب البيئة الزمانية والمكانية معاً ، وفي كل منا جانب من الخير وجانب من الشر يتنازعان دائما الانسان ، والظفر أخيرا فى جانب الاقوى كما هى سنة الوجود ، ويبدأ تاريخ هذا النزاع من أول مظهر للوجود الانساني ، حتى جعلت الامم القديمة من مصريين وفرس وغيرهم لهذين العنصرين المتنازعين آلهة ، فعندهم آله الخير وآله الشر ضمن آلهتهم المتعددة !

ولقد ذكرنا قبل الآن اننا من الوجهة الفلسفية البحتة لا يمكننا أن نقول ان الخير نقيضه الشر كما نتجاوز في ذلك فى التعابير اللفظية

والبيانية ، كما انه لا يمكننا مطلقا أن نقول ان الابيض نقيضه الاسود أو ان الفضيلة تقابلها الرذيلة أو ان الحب يقابله البغض ، فليس كل هذا في الحق الا تجاوزا منا وتعابير اصطلاحية ورثناها أو تساهلنا في ترددها ، وليست كل هذه الظاهرات الا مسائل اعتبارية نسبية تخضع لمبـدأ النسبية الذي يخضع له الوجود جميعاً أو على الأقل الوجود الانساني ، فلا يمكننا مطلقا أن نجزم بأن هـذا العمل خير وذاك شر ، فلا الخير خيراً محضا ولا الشر شراً بحتا ، وقد يكون خير في شر ، وقد يكون شر في خير ، وقد يكون العمل الواحـد خيرا وشرا معاً ، وقد يكون لا الى الخير ولا الى الشر ، وقد يكون خيرا فى عصر وغير خير في عصر آخر ، وقد يكون شرا لك وخيرا لي ، مما يثبت ان الحياة تمنع منعا باتا « الأطلاقية المحضة » (**Absolutisme**) وان العقل الانساني يقوم بوظيفته في حدود النسبية وحدها ! ! !

ونعود الآن الى موضوعنا : هل الفلاح خيّر أو شرير ؟ وأي العنصرين أغلب فيه على الآخر ؟ وما العلة في ذلك التغليب ؟

كل ما ذكرناه الى الآن عن نفسية الفلاح كانت نسبة الخير فيه أكثر من نسبة الشر ، أي اننا ذكرنا وشخصنا الناحية الخيرة فيه ، ونحب الآن أن نتحدث عن الناحية الاخرى اتماما للحديث واستيفاء للموضوع ، ويلاحظ اننا لم نشأ التعمق العلمي التحليلى في بسيكاوجية الفلاح وتشخيص « عالمه الباطني » فى هذه الرسالة التي

كما قلنا كثيرا تأخذ صبغة « الاحاديث » أكثر مما تأخـذ صبغة التحقيق العلمي !

يبدو لنا من ملاحظاتنا العديدة في ريفنا ان الفلاح فيه جانب كبير من الشر قد يكون خطرا فاتكا حين يساق الى ذلك مكرها بدوافع خارجيـة ، فهو فى معظم الاوقات هادىء مسالم وديع ، ولـكن اذا اندفع الى الشر تكشفت عنه طبيعة فاتكة ونفسية خطرة ، فهو ينقاد الى الشر لأتفه الاسباب فلربما لان جاره فى الغيط اقتلع قليلا من زرعه أو اعتدى على مجرى الماء الذي يصل اليه ، أو لان جاموسة جاره أو بقرته اعتدت على « جرنه » أو على زرعه فى غيطه ، بل ربما لان صبي جاره اعتـدى على صبيه وهما يلعبان فى الحارة ، أو لان امرأة من نساء القرية تشاءمت أو تشاجرت مع امرأته أو لان غيره مدين له ولو بخمسة غروش لم يسددها ، أو لان أحدا قد بلغ عنه يوما وهو يسرق أو قال عنه نميمة ، أو لأن أهل جاره قد سرقوا منه فرخة أو بطة

ولقد رأيت يوما — أستغفر الله — بل لقد سمعت ان فلاحا رأى غنم غيره تعتدي على جرنه حيث قمحه وشعيره ، فحدث النضال والتجاذب بالحديث ، ثم ان بيّت كل للآخر الشر وتربص به الاذى ، وفي الساعة المحددة تقابل الخصمان وحدث التصادم ، فضرب احدهما الآخر بالنبوت فشج رأسه ، فما كان من الثاني وهو يتضرج بدمائه الحارة التي خضبت وجهه الا ان بحث عن آلة يدافع

بها المعتدي ، فلم يجد خيراً ولا أسرع فى الاجهاز على خصمه الا فأسه الحادة ، ولقد بلغت أيضا بأن زوجا أساء الظن بزوجه فلم يجد طريقة الى تأديبها — ان كانت مذنبة — إلا أن سحب نبوته وأثخن تلك الزوج ضربا بالعصا حتى هشم أحد ذراعيها وأشله عن الحركة وهو باسم فرح بانتقامه الموهوم ، وهو مع هذه الروح المجرمة لم يستطع أن يثبت قالة الناس فيها كما يدعى ، ثم علمت أيضا أن امرأتين تشاتمتا على أمر يخص زوجيهما ، وأذكر أنه هذا الامر هو أن كلاً منهما أخذت تسب الثانية في عفافها فلكيدها أخذت تتهمها أن زوجها نفسه هو الذى داس شرفها وأتى معها فعلا غير شرعي ، وبعد التشاتم بالكلام قامت كل منهما الاخرى وسحبت النبوت وطحنتها به كما يفعل الرجال ، فترى هنا أن الغيرة النسائية التى هي من أخص صفات النساء نسيت نسيانا تاما فى سبيل الكيد وحب التشفى والغلبة

تلك الصور المقتضبة الموجزة من نفسية جانب كبير من الفلاحين والفلاحات تعطينا فكرة ولو تقريبية جانب الحق فيها أقوى من جانب الباطل كما نعتقد، عن انقياد الفلاح لعوامل الشر، هذا اللون الأحمر القاس الخطر، ويبيح لنا هذا أن نقول أن الفلاح اذا طاوع الشر فعسير عليه أن يعتدل أو يترفق في شره بخلاف معظم اخوانه المدنيين ، وحسبك انه لا يكافح الا بالنبوت أو الفأس أو البندقية ثم هناك شيء آخر يمكننا أن نستنتجه من هذه الصورة الاخيرة،

وهو أن العدوى الشريرة قد انتقلت من الرجل الى المرأة ، ومن الطبيعي كما قرر العلماء أن عدوى الشر أسرع خطي من عدوي الخير ، فظهرت المرأة التي كنا نحسبها ولا نزال نحسبها ملاك رحمة ورسول لين ونعمة ، في مظهر اللبؤة الضارية التي لا تعتدل في البطش ولا تترفق في الفتك ، حتي كدنا نؤمن بأن رقة المرأة وليونة النسائية ورخاوة الأنوثة قد استخفت في الريف بين الكثير من النساء وغادر البيت ملاكه وسكنه الشيطان !!!

والفلاح اذا ما اعتزم الشر والاذى بغيره لا يهدأ له بال ولا يطمئن له قرار حتى يرضى شهوة انتقامه التي تهيمن على كل شهواته، فكثيراً مايعتدي على زرع غيره تشفيا وكيدا فأما أن يقتلع زرعه حتى ييئسه من المحصول والنتاج ويضيع تعب عامه وعصارة دمه وماسكب فيه من عرق الجسم، وأما ان يطلق لماشيته عنانها فتعبث بزرعه حتي تأتي عليه ، واما ان يشعل النار في جرنه حتى لا يبقى له محصولا شتويا يقوت به نفسه واولاده ونحن لا نجهل بأن هذا المحصول الشتوي هو تكأة الفلاح وسنده في العام، منه يعيش ومنه يبيع جزءا منه ليبتاع به حاجاته المنزلية، واما ان يسمم ماشيته حتي يحرمه نفعها له في العمل واستدرار اللبن منها ويحرمه أيضا قيمتها أو لحمها ، وماشية الفلاح كما نعلم هي كل حطامه من العيش وثروته في الوجود وسنده فى العمل وساعده حين اشتداد الازمات المالية او حين تستحكم حلقات الحجر وأوامر (المحضرين) ، وأما ان يلجأ

الى السرقة فيسطو على داره أو على ماشيته او على نورجه او محراثه وهذا او أقل منه هو كل ما يملك فلاحنا المسكين

ولقد شاهدت جماعة من الفلاحين أحبوا ان ينتقموا من خصوم لهم فى قريه ، فأفضي تفننهم المبدع في الانتقام الى أن سطوا ليلا على جرن خصومهم حيث الغلال جاهزة متوفرة ومعدة للتخزين فأخذوها ثم بعثروها بددا في الحقول التي بجوارهم حتي لا يمكن بعد ذلك لخصومهم ان يستجمعوها ويفيدوا منها ، وتلك أكبر رزيئة لو يفلحون وهيهات ان يفلحوا !!

هذه الصور من الفلاح ترينا جانبه الاسود بعد ان رأيناجانبه الابيض وتظهر لنا أنه يتخذ كل الطرق للفتك بخصمه حتي ولو أدى الانتقام الى الفتك بحياته نفسها .

قد يظهر ماأتينا به هنا من الصور عن فلاحنا لبعض القراء تصويراً ظالما أو حقيقة مرة كما يقولون ، فما أدلينا به يشتم منه رائحة الدم أو يلحظ منه الروح الشري الخطر للفلاح ، ويعلم الله أننا لم ننتهج في هذه الرسالة الا الحرص على الحق وعلى رضاء الضمير فقط دون أي نظر الى اعتبارات أخرى سواء أكانت قومية أم لم تكن ، فانا بما نأتي به من الصور لا نبغي الا أن يكون العمل الذي أخذنا أنفسنا به كاملا أو قريبا من الكمال ، ولن يكون الكمال الا اذا أرضى الحق وقدس الضمير !

ولكن ما الدوافع التي تدفع الفلاح الى هذه الشرور ؟ نحن

لا نشك مطلقا في أن للبيئة القروية بكل محيطاتها ومؤثراتها وللوراثة ولعدم تربيته وتعليمه ولسوء حكم الحكام وسياسة الملاك ولمرور عصور الظلم والجبروت يدا لها خطرها وأثرها في تكوين وفي تنمية هذا الروح الشرى ، فلو كان القدر يسعده بنعمة التعليم ولو تحيط به ظروف خيرة ، ولو يعيش في أوساط راقية مهذبة مستنيرة ولو يهبه الله حكاما وملاكا يخافون الله ويعدلون ولا يظلمون ويجرمون ، اذن لساعد كل هذا علي أن يشذب من شره ويهذب من خلقه وعلى ان يقلل من اجرامه ، واذن لاستراح القضاة وعلماء الاخلاق والاجتماع وزعماء الاصلاح من التفكير في علاج لهذا الوباء الفاشي ولهذا الروح الاجرامي، ولكان الريف المصري مستراح المكدودين حقا الذين يطلبون الدعة والأمن والهدوء ، ولأمن الناس ولو قليلا والى حد ما على أرواحهم المهدده بسيف الروح الانتقامي المهيمن على كثير من فلاحينا والذي يظلم بسطوته وبرهبته سماء الريف الصافية فلا تعود تسبح فيها الملائكة ولا تعود تبعث لأهل الارض نورا وحكمة وسراً يستمدون منها القوة على العمل والقدرة على الكفاح والعون على الايمان .

واذن لبطلت دعوى دعاة الاستعمار فى أن الفلاح المصري راض عن حكمهم مغتبط بعدالتهم مهلل لسياستهم مؤيد لاستلابهم حق شعب في الحياة وفى الحرية لا لسبب إلا لأن القوة تريد ذلك ولأن النفوس الجشعة تريد أن ترتوي وأن تأكل وتشبع ، واذن

لأراحونا بذلك من اليأس فى اصلاحه حتى لا نضطر أن نذهب مع القائلين : اليأس احدى الراحتين ! ولكن اليأس لن يكون وفى مصر اصلاحيون وفى مصر شعب كريم ينصر قضية الاصلاح وعملية التطهير والاحياء !!

نعم ! تروعنا هذه « الشرّية » فى ريفنا لأنها تجعل الحياة هناك عند الكثير غير مطمئنة وتجعل لأولئك « الجزارين » واللصوص فضاء واسعا يمرحون فيه وعملا سهلا يضمنون منه ارزاقهم بعيدين عن أيدى القضاء وانتقام العدالة ، ففى الليل واذا ما تلفع الوجود بأستاره وبعباءته السوداء واذا ما سكن كل حي وجلس الزوج الى زوجه وأولاده يستمتعون بحلاوة العيش وبنعيم الحياة ، تخرج جماعات السفكة والمجرمين والجزارين تطلب قوتا تأكله من أرواح الناس ومن جسومهم الطريئة الغضة ومن عويل النساء وبكاء الاطفال وصراخ العجزة ، تخرج مسعورة كالكلاب الجائعة الذي يمسها شيء صوب الرجل الذي تزعم أن لديه مالا يملأ جيوبهم وبطونهم ويريحهم من عناء البحث عن العيش من طرق العمل الشريف ، فان وقف أحد في طريقها يذود عن حياته الغالية التي منحه اياها الله والتي لا يجوز لأحد أن ينتزعها منه الا الله ، فليس أيسر لديها ازاء ذلك من البلطة يشج بها رأسه أو من البندقة تخترم صدره وحشاشة قلبه

ولا تزال للآن هذه الجماعات الشرية منتشرة في نواح كثيرة

في ريفنا وهي منظمة تنظيما متقنا ككل الجماعات المنظمة، فلها رئيس ولها وكيل ولها أعضاء، وقد تكون لها جمعية أو لجنة تنفيذية وأخرى فرعية أو عامة والرئيس هو الذي يديرها وهو الذي يوجهها نحو السلب والقتل، والأعضاء كلهم متضامنون يشعرون جميعا بشعور واحد يؤلف بينهم ويجانس بين روحهم وهم مسئولون أمام الرئيس العام الذي له حق توقيع العقاب بمن يخالف مبادىء الجماعة أو يخرج عليها أو يذيع أسرارها ، وليس لأي عضو اذا أمر بأمر أن يتنصل منه أو يتنحى عنه مهما جل خطره وفدح شأنه . ولهذه الجماعات طرق مدهشة في تنفيذ مبادئها وفي الهرب من يد الحكام فلديها أحيانا ألبسة رجال البوليس ولديها خيول تشبه خيولهم وبهذه الاردية يسخرون من البوليس ويرهبون الناس ويتخذونها درعا يقيهم الضبط ثم الزج في السجون، ولها طلائع أو جواسيس تخبر الباقي عن العثور على جهات جديدة يمكن لهم أن يغنموا فيها شيئا، ولهذه الجماعات مراكز ادارة يعقدون فيه جلساتهم ، فاذا ما اعتزموا على شيء في ليلة ما بثوا رسلهم ونشروا جواسيسهم وعينوا رجالا منهم يقفون فى منافذ القرية ومخارجها ومداخلها ليقوموا بالحراسة ثم عينوا آخرين للعملية الخطرة المهيبة للسلب والسفك والتعذيب بعد أن يكونوا قد ضمنوا عيون الناس ونوم كل القرية الهادئة الى حياتها الفطرية الطيبة . فاذا ما انتهت العملية ونفذوا أغراضهم واستراحت

ضمائرهم — ان كانت لهم حقا ضمائر — وزعوا الاسلاب والغنائم لتشبع كل نفس ويتورم كل جيب وبطن

هذه الجماعات الشرية المنظمة هذا التنظيم الذي رأينا قد تتألف من بعض العاطلين الذين لا عمل لهم أو من بعض سذج مساكين انخرطوا في الجماعة بدافع الاغراء والايهام أو من الذين اتخذوا السلب والقتل وانتهاك الحرمات وترميل النساء وتيتيم الاطفال وتخريب البيوت وهدم الأسر والعائلات حرفة ومهنة لهم يتجرون فيها ويرتزقون منها، فكما يرتزق المحامى من مهنته والطبيب من عمله والموظف من وظيفته، كذلك يرتزق هؤلاء المجرمون المحترفون من الدماء المسفوكة والارواح المزهوقة والاشلاء المبعثرة والانات الصاعدة والزفرات الحارة والنفوس المصدورة والعيون المحترقة من لهيب الاسى والفجيعة لا من قطرات الدمع الصافية !!! وهذا الصنف الاخير من المجرمين هو الأغلب والاقوى والأجلى خطرا في هذه الجماعات الاجرامية ، فاذا تصورنا الحالة الاقتصادية للسواد الغالب في ريفنا أمكننا بكل سهولة ان نفهم كيف يوجه المال هؤلاء المجرمين المحترفين الى حيث يريد ، فاذا أردت أن تنتقم من خصم لك كبير انتقاما نهائيا لا يعود منه الى هذا الوجود ، فليس عليك الا ان تضع يدك في جيبك وتدسها في يد أحد هؤلاء المحترفين الذين أصبحت عندهم صناعة القتل والسفك وقبض الارواح سهلة هينة مريحة كما تصبح صناعة الكلام سهلة للمحامي المقتدر وصناعة

الكتابة سهلة للكاتب الكبير ، واذا ما وصل المال لليد الأثيمة ضمنت رأس خصمك منتزعا من جسمه في راحة يدك فتفعل بها ما تشاء لك الخصومة !

هذا اللون من الاجرام وذلك الضرب من الشر الخبيث، ونقول خبيثا لأنه قد يكون هناك شر طيب نافع . هذان اللونان الخطران من الاجرام ومن الشر يتفاوتان قوة وضعفا، فلسنا ننظر الى السارق كما ننظر الى القاتل ولسنا نحكم على صاحب السرقة الكبرى بما نحكم على صاحب السرقة الطفيفة الصغرى ، ولسنا ننظر الى جريمة القتل بنظر واحد فأشد المجرمين في رأينا خطراً وأولاهم بالضرب على الأيدي وبالقصاص والعقاب البالغ أقصى حدود الشدة هم أولئك الذين تخذوا الاجرام « حرفة » وتخذوا أرواح الناس وحيواتهم تجارة ومرتزقا، هؤلاء تشدد عليهم النكير ونناشد رجال الحكم والقضاء فى مصر ألا تحركهم نحوهم عاطفة شفقة أو رحمة لأنهم جزّارو البشرية وهؤلاء هم الذين نحب أن تتوجه اليهم جهود الاصلاحيين والمطهرين حقا، حتى يبقى للريف هدوءه وطمأنينته وحتى تعيش مصر في دعة وأمان وحتى يستريح الناس ويطمئنوا على أرواحهم وحيواتهم

أما حوادث السرقة العديدة في الريف فلقد يكون الباعث الأقوى على معظمها هو فقر الفلاح هذا الفقر المدقع الذي عرفناه والذي لا يتناسب مطلقا مع الغنى الواسع العريض لأصحاب

الثروات والقصور والضياع . وقد يكون العامل النفساني عامل الأسى والنقمة والحسد والغضب والألم لتلك الظروف القاهرة التي جعلت غيره يتوسد الحرير وجعلته هو يفترش المدر والحصى وجعلته يقضي طوال حياته في الكد والشقاء واستدرار الثروة لأصحاب الارض وجعلت غيره هانئا مطمئنا الى حياته الرغيدة الرافهة وثروته العريضة الواسعة التي قد يكون لم يدفع من ثمنها دانقا أو سحتوتا بل ورثها بقية من بقايا « عصر الاقطاع » عصر المثل الاعلى في التعسف والاستبداد واستلاب الحقوق والعبث بالناس وبحيواتهم ، هذا العصر الذي كاد أن ينقضي من أوربا وتندثر معالمه ولكن لم يستح أن يظهر في مصر حتى في القرن التاسع عشر قرن العلم والاختراع ! فاذا أضفنا الى كل هذا سوء سياسة الحكام ومعاملة الملاك له تكشف لنا بعض التعليل الحق لحوادث السرقات العديدة التى يقوم بها ، فهو يريد أن يعيش كما يعيش الناس ، وبما أن أولى الأمر حرموه أن يعيش عيشا كريما شريفا ، عيش انسان حر يشعر بأن له حقا في الوجود ونصيبا في الحياة ، فقد بحث عن طريق آخر ليعيش ولو انه طريق معوج الا أنه طريق الى الحياة ، والحياة ثمينة عزيزة !!

ماذا يفعل ذلك الفلاح الذي يأتى عليه الليل فلا يجد لأولاده ما يقدمه لهم من العشاء وقد رآهم يتضورون من الجوع ويشكون برح الفقر ومرارة الأسى وهم لا يزالون بعد فى سن الطراءة والرخاوة ولم تعرف بعد عيونهم معنى البكاء أو الدمع ، وهو يعرف أن هؤلاء

الاطفال الصغار أمانة في عنقه بل فلذة من كبده وقطعة من نفسه وانه مسئول عن حياتهم أمام الله وأمام ضميره ، ماذا يعمل هذا المسكين اذا سمع أناتهم الموجعة و نفثات صدورهم المكلومة ورأى قطرات الدمع تسح على خدودهم النضرة عصارة لقلوب آسية و نفوس متألمة تطلب العيش و تستجدى الحياة ، ؟ ماذا يعمل هذا المسكين وقد عز عليه الطريق الشريف الى العيش وقد شح عليه اخوانه وضن عليه الصديق وتنكر له الزمن وكسر المالك خاطره وصدع قلبه وضيق عليه الخناق ؟ ليس لديه إذن ليعيش و ليعيش ابناؤه الصغار الا ذلك الطريق المعوج وتلك الوسيلة الدنيئة الساقطة : السرقة

وماذا يعمل ذلك الأب الذي أتى عليه العيد وألح عليه أولاده الصغار في شراء ملابس جديدة لهم يتزينون بها وهم في هذه السن المرحة اللاهية بين اخوانهم ورفاقهم حتي لا يطأطئوا رءوسهم ذلة وانكسارا اذا وقعت عيونهم على اخوانهم فى القرية من الاطفال وهم يلبسون جلاليبهم الجديدة البيضاء والحمراء ويجرون ويلعبون

ثم أرجو أن تتصور معي أيها القارىء الكريم استعداد اطفال القرى بل شبابها ورجالها و نسائها الى العيد ، وتصور معي انه يومهم الأكبر الفرد ، يوم راحتهم الوحيد من عناء العمل ، ويوم يجتمع الاب والام وحواليهما هؤلاء الاطفال والابناء الاعزاء وقد يعز عليهم مثل هذا الاجتماع العائلي المقدس السعيد في الايام الاخر

ثم تصور معى أنهم يحسبون له الاشهر والايام ليخرجوا من

ديارهم في ثياب جديدة وعلى وجوههم ابتسامة البشر والتحية للعيد، واذا فرغت من هذا التصور ورسم هذه الصور فى ذهنك وخيالك، عد معى ثانيا وتصور أطفالا صغارا لم يعرفوا بعد معني للالم ولم يتذوقوا بعد طعما للشقاء، وخرجوا صحيفة بيضاء الى الوجود تجهل مافى الكون من ألم وما فى الحياة من ضنك، وما للآباء من مسئوليات وواجبات، ومايتحملون فى سبيل أبنائهم من ضنك العيش وفداحة الاعباء ، تصور هؤلاء الصغار يأتون الى ابيهم المسكين الفقير باكين شاكين لان العيد قد أوشك أن يأتي ولم يحضر لهم بعد ثيابا جديدة مع أن غيرهم من رفاقهم الاطفال قد ابتاع لهم آباؤهم من السوق ما سيخرجون به يوم العيد مرفوعي الرءوس فرحين مرحين ، ثم تصور معي أن هذا الاب الفقير ليس عنده في داره ما يأكله يوم العيد فضلا عما يريد أن يشترى به لاولاده مايكسو جسومهم العارية ويرضي قلوبهم الباكية ونفوسهم الشاكية !

من القسوة كل القسوة أن نحكم على هذا الصنف من الناس ونحن مستمسكون بمبادىء الفضيلة والصدق والامانة والشرف وما اليها جميعا ، ومن القسوة كل القسوة بل من البعد عن الحق وعن العدالة كل البعد ان نكون قضاة بعيدين عن الحياة وعن المجتمع وعن البشر، جاهلين الظروف والعوامل والنواميس السرية المختلفة الغامضة التي تقود الناس الى اعمالهم واللصوص الى سرقاتهم مضطرين كارهين ، واذا تجرد القضاة وهم على كراسي القضاء من مبادىء

الواقع والحياة وطبيعة الوجود وتقدير نفسيات الناس وظروف الاحوال وتصوير ان الناس ناس لاملائكة ولا آلهة، ثم استمسك القاضي بمبادىء الخيال ونظريات الفضيلة والعلماء والفلاسفة وحبس نفسه عند نصوص القانون ومختلف الكتب والمراجع لم يسلم حكمه من البعد عن الحق وعن العدالة وعن الروح الانسانى !!!!

لسنا بذلك القول نشجع ونذيع مبادىء « المدرسة المكيافيللية » فلقد نكون اشد الناس عداء لهذه السبل الوضيعة من العيش، ولكننا نبحث عن هذه البسيكلوجية الشرية في الفلاح، ونحاول جهد استطاعتنا أن نرجعها الى مصادرها الاولى ونعثر على تعليلها الحق كما نعتقد وكما نؤمن ولكننا نحس ونشعر أن « المبادىء الانسانية » وناموس الحياة وبسيكلوجية الشرير واللص يجب أن يكون لها الاعتبار الأول، فاذا نظرنا الى حادثة سرقة أو قتل فقبل أن ننظر فيهما يجب علينا أولا ان ننظر الى « الانسان » الذى ارتكبهما لانه يهمنا اولا اصلاح « الانسان » ودراسته لنتمكن من اصلاح الجماعة ودراستها .

ثم مالنا نستنكر هذه الحوادث من الفلاح ونقسو فى الحكم عليه وقد عرفنا جانبا من حياته ومن ظروفه ومن تربيته ومن اوساطه! أليس الطبيب سارقا حين يستبيح لنفسه أن يأخذ أجره من المريض وهو يعلم جد العلم بأنه لا أمل للطب فى شفائه ؟ أليس التاجر سارقا حين يستبيح لنفسه ان يكسب في صنف من تجارته ضعف وأضعاف ثمنه، وحين يغش في المكاييل والموازين سعيا وراء الكسب الحرام

الدنيء ؟ أليس المعلم لصا حين يتهاون ويفرط فى واجبه نحو تلامذته ثم لا يأنف ولا يستحي من ان يقبض في اخر الشهر مرتبه كاملا موفورا ؟ أليس المحامي لصا حين يعرف ان القضية لاشك خاسره وانه بالدفاع فيها انما ينصر الباطل على الحق والكذب على الصدق والرذائل على الفضائل والالحاد على الايمان والعهر على الشرف، ثم لا يأنف ولا يستحي ان يمتص دماء موكله ؟ وما الفرق بين الفلاح الذى يسرق جاموسة او بقرة ليعيش وبين الطبيب أو التاجر أو المحامي أو المعلم الذين يسرقون الرحمة والفضيلة والكمال والامانة والوفاء ؟ وأى السرقتين أفدح مصابا وأضر بالعالم وبالانسانية : الجاموسة أو الامانة ، البقرة او الفضيلة : ؟؟

ألأن الاول سرقته «محسوسة » وسرقة الاخرين «معنويه» نسمي الاول لصاً دنيئا ونسمي الاخرين أطهارا بررة ؟ألأن الاول شاء له قدره المنحوس أن يضبط تحت يد القانون وان يزج في الاقفاص ولان الاخرين يهربون من الوقوع فى قبضة العدالة نسمى الاول من طراز السفلة ونسمى الاخرين من طراز الشرفاء ؟

ولكن هكذا أرادت سنة الحياة ! وهكذا توزعت الالقاب والنعوت على الناس ! وهكذا شاءت الاقدار ان يكون بعض من الناس لصوصا سفلة والبعض الاخر اطهارا بررة ! اذن فلتكن ارادة الحياة ؛ولتكن مشيئة القدر ! ولنسلك كما يسلك الناس !

وليس لتخفيف هذه الحوادث في ريفنا الا العمل على تخفيف

آلام الفلاح وازالة شكاياته وضمان حياة الراحة والرغد والنور له وتمكينه من أن يعيش حرا مطمئنا الى العدالة شاعرا بالرحمة وبالحرية وبحقوقه وبواجباته، وقبل كل هذا وذاك تعليمه وتربيته لأنه لا يقوم اصلاح كما نعتقد ونرى بدونهما ، فلو فعلنا ذلك لاطمئن الفلاح الى عيشه الهادىء ولعكف على واجباته راضيا مستريحا عن نفسه وعن عمله ولفهم حقه وواجبه ومركزه فى العالم ونصيبه في الحياة، ولرأى النور نقيا طاهرا لادخل ولاضباب ولاظلام فيه ولاشترك معنا فى كل عمليات الاصلاح ونواحي الانتاج والخصب والخير !

ذكرنا قبل الآن كلمة أو صورا عن الاجرامية الخطرة في فلاحنا وشددنا النكير وناشدنا رجال القضاء والحكومة ليقضوا القضاء الحاسم على فئة المجرمين المحترفين » أو كما يسميهم البعض « المجرمين العاديين » والا تأخذهم فيهم شفقة أو رحمة وذلك لسلام العالم وطمأنينة مصر ورخائها وأمنها ، وبهذه المناسبة نود أن نقول أن معظم الجرائم فى الريف يكون الباعث عليها روح الانتقام ونحن نعلم أثر وخطورة هذا الروح الفاتك ونعلم أنه أقوي الغرائز الانسانية بعد غريزة حفظ النوع . ونعلم تشبع كثير من عائلاتنا الريفية ومن الافراد الفلاحين ومن كبار العشائر والاسر ، نعلم تشبعهم وخضوعهم لهذا الروح الانتقامي الفاتك الرهيب ، ونعلم أنه لايزال فى ريف مصر بحريها وصعيدها — وفي الثانى أغلب وأقوي — عامل العصبيات المختلفة قويا مكينا فتكاد لاترى جناية من الجنايات الريفية تخلو

الباعث عليها من « العصبية » ومن العـداء العشيري ومن الروح الانتقامي وليد الماضي السحيق ووريث الاحقاد الدفينة والاحن المحبوسة ،

وكنا قد سمعنا أن الحكومة عينت وألفت لجنة المصلحين لتصلح ما بين العائلات والعشائر والعصبيات فيما يحدث بينهم قبل أن يعرض الأمر على القضاء ليقول فيه كلمته الحاسمة وذلك لتخفيف ويلات الناس وآلامهم ولحفظ العائلات والعشائر من أن تتمزق وحداتها وتنفصم عراها وللتوفير على المتقاضين من مال ومن جهود ومن وقت اذا ما احتكموا للقضاء وللعمل جهد المستطاع والى حدما على تصفية النفوس من الاحن والعداوات القديمة والسخائم الدفينة وتحل محلها الصفاء والود والوفاق والحب ، فما لنا لا نرى لهذه اللجنة المزعومة ولهذه اللجان المحلية الفرعية وجودا محسوسا ولا صدى مسموعا ؟ هل قدر علينا طوال حياتنا — حتى في هذا العصر — أن نقضى أعمارنا كلها فى تأليف لجان وعمل جمعيات وانتخاب رؤساء وأعضاء وتحضير مواد وتحبير أوراق وعقد جلسات ثم نرهف بآذاننا أو نفتح عيوننا ونعلي رءوسنا لنسمع عن صدى هذه اللجان والجماعات والجلسات ولنري آثارها وأعمالها ومدى خطواتها فلا نسمع شيئاً ولا نبصر أثراً ؟ أنقضي أعمارنا عبيد المظاهر والأقوال والخطب ؟؟؟

لقد آن أن نبحث فى طمأنينة الناس وفي راحتهم الداخلية وفي العمل على الصفاء والحب بدلا من الضغن والكره حتي تتآلف وحداتنا

المتنافرة وتتآزر كتل نشاطنا الاجتماعي على خصب مصر وخيرها وسلامها وحريتها ، فعسي رجال الحكومة يجدون لهذا الروح الانتقامي في ريفنا ولهذه العصبيات ولهذه الشرية علاجها ودواءها بدلا من ضياع جهودهم واوقاتهم في القاء وعود وأعداد خطب وضمان حياة الرغد والرفاهة والطمأنينة لهم وحدهم ! !

قد يبدو ما أتينا به من الصور حين تحدثنا عن النفسية المجرمة في الفلاح قاسيا منكرا ، وقد يتصور للبعض أن هذه الاعمال التي يرتكبها من الوحشية بمكان ومن الهمجية بحيث تتقزز منه النفس ، ولكننا نقول لهؤلاء : مهلا ! ورويدا أيها اللائمون والعذال ! !

لماذا ننظر الى الفلاح المصري هذه النظرة القاسية ولماذا نحكم عليه عليه هذا الحكم الذي فيه من القسوة ومن الظلم كثير ، ولماذا لانحكم هذا الحكم و ننظر هذه النظارة الى الغربيين رسل النور والحضارة والخير والعذالة والمدنية والعلم والكمال في هذه الارض ؟

قرأت يوما فى جريدة السياسة من منذسنتين لا أذكر بطريق الجزم ، أن ستة آدميين بشريين لا وحوشا ولا همجيين ، ستة أوروبيين متحضرين لاأفريقيين أو اسيويين متوحشين في بولنده أو تشكسلوفاكيا — لا أتذكر — عز عليهم الطعام في هذه الحياة العريضة الواسعة وضاقت بهم الارض على رحبها وسعة جنباتها فلم يجدوا غذاءهم وطعامهم ولم يستمرئوا خيراً من لحم بشريين مثلهم يجرى فيهم دماء البشر وتخفق بينهم قلوب تحب وتبغض وتميل وتحقد

كبكل قلوب البشر ، ستة من الحضر لا من البدو ، من أواسط أوروبا الراقية المتمدنة السيدة الحاكمة المتألهة لا من مجاهل أفريقيا أو بلاد السنغال أو غابات الصين وادغال الهند حيث فارقتها أنوار الحضارة وعزت عليها جميعا نعمة التعليم ، هؤلاء الستة البيض لا السود ولا الحمر اعتدوا على جماعة أوروبية مثلهم بيض أيضا وأكلوا لحومهم أحياء وتلذذوا بذلك اللحم البشري الطرىء ، وجرى هـذا الدم البشري القاني الطاهر البرىء حارا في دمائهم وفي قلوبهم وبطونهم الغرثي الظامئة الى الدم والى اللحم ، ويا ليت شعري هل انتظروا نضج هذه الفرائس والضحايا وشواءها أو هل تعجلوها وأبوا أن يصبروا فالتهموها حية شاعرة طريئة مخضبة بالدم القانى الحي البرىء؟ ويا ليت شعري بماذا شعروا حين عبثوا بهذه الارواح المظلومة الحرة أبلذة الشبع من الجوع والارتواء من الظمأ أم بتلك اللذة الكبرى التي تنشيهم وتسكرهم . لذة انتصار المدنية الأوروبية على البربرية الاسيوية أو الافريقية ؟

هذه « الكانيبالزم » الأوروبية نحمد الله على أنها قد ظهرت في أجلى صورها وأبين مظاهرها في أواسط أوروبا المتحضرة لا في مجاهل أفريقيا المتوحشة أو أدغال آسيا البربرية كما يزعمون ، ونحمد الله كل الحمد على أنها اختارت لظهورها على الناس القرن العشرين قرن الحضارة الذهبية والمدنية السامية الراقية أو قرن النور والعرفان كما يقولون ، ونحمد الله أيضا على انها اتخذت مسرحها ومشهدها

في الغرب الراقي المتمدن وبين الانسان الكامل العالمي لا في الشرق المنحط المتوحش وبين الانسان الجاهل الساقط كما يرغون ويزبدون !!

ونحن لا نذكرها هنا إلا لتسجيلها عليهم دون أن نعلق عليها أو نبني عليها أحكاما وتكتفي بأن نقول لهم وبخاصة « لرديارد كبلنج » شاعر الامبراطورية البريطانية صاحب القول المأثور الخالد: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ، ونقول لهذا الشاعر الكبير ولأصحابنا الغربيين الذين يتبعون قوله :

تلك دالتكم علينا وهذا وسامنا الشريف نعلقه في فخار وفي كبرياء وتيه على صدورنا الكبيرة الشريفة ليدحضا فريتكم الباطلة وكذبتكم الشنعاء

وليطامنا من رءوسكم التي تركبونها عتوا وصلفا ، ونقول لهم أخيراً : لسنا وحوشا ولسنا « كانيباليين » نأكل لحم البشر طريا ونشرب دمه جاريا !!

***

نريد الآن ان نفي بوعدنا حيال القاريء الكريم حين تحدثنا عن هذا الصنف من السعادة الذي يشعر به الفلاح المصري في أطواء نفسه وفي خبايا قلبه رغم ما يلاقي في حياته من نكد وعنت وفقر وشقاء وحرمان وجور واعتساف وعناء في عمله الطويل الشاق ورغم بعده عن حياة اللهو والحضر والنور واعتكافه في داره وفي حقله

وفي قريته الهادئة المنعزلة عن صخب الوجود وكفاح العالم وتطورات الحياة .

لا يمكننا ونحن نأخذ على أنفسنا القيام بالحديث عن هذا الفلاح المسكين ، عن هذا السيد الحق لمصر ، وبتصوير حياته ونفسيته في دائرة معلوماتنا واستطاعتنا ، لا يمكننا ونحن نقدمه للبيئات المدنية المصرية والعالمية والشرقية بخاصة لنخلق بذلك روابط الاتصال بينه وبينها حتي تزداد حياة مصر خصبا ونوراً وأنتاجا وقوة ، وحتى يفهم هذا الصنف المسكين من الانسان حق الفهم فيأخذ مجلسه الحق وينال نصيبه العادل من « حقوق الانسان » المكفولة الخالدة

نقول لا يمكننا ونحن نقوم بهذا الواجب الذي أخذنا أنفسنا به ارضاء للحق وحده واتباعا لنداء الضمير الباطنى العادل المنصف وشعورا بالمبادىء « الانسانية » الطاهرة النزيهة الطيبة ، الا أن نلمّ بناحية هامة من نواحي عالمه الباطني حتي تكمل الصورة بعض الكمال وتقرب من الحق ومن العدالة . . .

وهذا الصنف من السعادة الذي نزعمه لفلاحنا والذي هو العلة الحقة في رضائه عن حياته النكدة وعن عيشه النغص المظلم وفي سلواه وعزائه وهدوئه وراحة سره « كما يقولون » هو فى اعتقادنا « نعيم الجهالة » الذي نحب ان نختتم به هذا الفصل !

لايزال الناس جميعاً يختلفون في أوجه السعادات ويتضاربون

في آرائهم عن معني « السعادة » وسيبقى هذا الاختلاف وهذا التضارب مابقى الانسان على هذه الارض ، ومما لاشك فيه أن لكل انسان سعادته الخاصة به المتفقة مع تكوينه النفسى وعالمه الباطنى ومزاجه الذاتى وثقافته ، ومما لاشك فيه أيضا أن بغية كل انسان في حياته انما هي الحصول على السعادة التي يطمح اليها وتلك هي طبيعة الارادة الانسانية كما يقول « بوسويه » ، وهذا هو الباعث لكل الناس على العمل حتى الذين يسعون الى الموت كما يقول «باسكال» !!

واذا كان معنى السعادة الحق يكاد يكون كالطائر الشارد ، واذا كانت السعادات كلها على اختلاف صنوفها وتباين ألوانها لا يمكن : أن نعرفها تعريفا ثابتا مرسوما أو نشير بأصابعنا وبأقلامنا عليها فى خرائط موضوعة او نحصر تعاريفها ونحددها ونحفظها كما نعمل في القواعد الرياضية والقوانين الطبيعية .

واذا كانت «السعادة» هذا اللفظ المبهم وهذا المعنى الغامض المرن قد تزورنا بين حين وحين بدون ان نشعر بها أو نحس بوجودها بيننا كما يقول « الاستاذ العقاد » ، واذا كانت السعادة كما نراها نحن هى عدم التفكير في السعادة أو هي « راحة السر » كما يقولون فماذا تكون سعادة الفلاح هذا الصنف من الانسان المنعزل عن العالم الصاخب والوجود المكافح الحي ؟

لا يمكننا مطلقا أن نجرد فلاحنا المسكين من الشعور بصنف من صنوف السعادة ولا يمكننا مطلقا أن ننكر عليه سويعات يجلس

فيها الى نفسه مطمئنا مستريحا وقد جرد نفسه الظاهرة من العالم الخارجي ومن شهوات الحياة ومطامع الوجود فعكف على نفسه ليعيش فيها ويستسلم للهدوء المطلق أو للفناء الحي ، اذن فلفلاحنا صنف من السعادة ولون من النعيم رغم عيشه عيشة لا تليق بكائن يحمل شارة النبل للمعنى النبيل السامي : « الانسان »

فى تلك القرية الهادئة الساذجة الحالمة في المستقبل الغامض المريب ، الخائفة من الغد المبهم المضبّب ، المتبرمة بعسف الحاضر وبمرارته وبصنوف شقائه وقسوته ، الباكية على الماضي الدابر وعلى عهود الطفولة الناضرة،وجلالة القدم المهيبة وقت ان كانت الطبيعة لا تزال بكرا في غضارة شبابها وفي فتوة قوتها وفي بهر سحرها وجمالها وفتنتها ، وفى تلك الحقول الخضراء المترعة بالخصب وبالخير والتي شهدت طفولة التاريخ الانسانى وشبابه وكهولته ولم يمح جمالها وجلالها غدر الزمن ولم يضعف من قوتها قسوة القدر ، في تلك الحقول الشاعرة الساكرة المرددة أغاني الحب وتسبيحات القداسة الدينية ، وتحت تلك الشمس الطيبة الخيرة باعثة الدفء والحرارة والنور للعالم جميعا ، شمس الريف المحسنة الفاتنة الجميلة ، وفي غيبوبة هذه الجهالة النائمة المهيمنة على ريفنا وفلاحنا هيمنة القوة والسلطان، وفى هذا الاستسلام المطلق لعسف السيد المالك وبطش الحاكم والخنوع والخوف والجبن والضعف واليأس والشقاء

فى كل هذا جميعا ورغم كل هذا جميعا يعيش فلاحنا كالحالم أو

كالساخر مغتبطا — شعر أو لم يشعر — بنعيم الجهالة التي يعيش فيها ، فماذا يعنيه اذا كان العالم الفلاني أثبت هذه الحقيقة ووصل الى هذا الاكتشاف الجديد الذي ستتطور من أجله توجهات العلماء ، أو أن النبات يشعر كما يشعر الانسان بل أكثر منه أو انه يعاني الحالات النفسية كما يعانيها الانسان وكما يقول السير جاجاديس بوز العالم النباتي الهندي الكبير أو ماذا يعنيه هو أن يعرف وأن يقول مع القائلين بأن الارض كروية أو متحركة فهل يحتاج إلا الى قطعة منها يسعد بها في حياته والى حفرة يدفن فيها بعد مماته كما يقول «جوت» ؟

ليكن البعد بين الارض والقمر ما يكون ، ولتكن الأرض أو الشمس هي المتحركة ، وليكن كل الكائنات الحية من أصل واحد ثم تفرعت أو من عدة أصول أو أن القرد والانسان من أصل واحد أو لم يكونا ، وليكن الدين يختلف مع العلم أو لم يختلف ، ولتكن الارواح خالدة أو فانية ، وليكن مناجاة الارواح حقيقة او كذبا ، وليكن لنا عقل واحد أو عدة عقول ، وليكن العالم سائراً الى الأحسن أو الى الاسوأ ، وليكن تفكير العلماء في ماهية السبرمان أو الانسان الكامل ، وليفكروا كما يشاءون فى اصلاح النسل أو ما يسمونه «باليوجنيـة» وليفكر الاقتصاديون فى البحث عن تنويع الثروات وازديادها والاجتماعيون في البحث عن اصلاح المجتمع الانساني من الانتكاس الذي يعيش فيه ورجال السياسة فى البحث عن تقليل الحروب وربط العالم جميعاً بميثاق السلم وتخفيف ويلات الشعوب ،

واليخترع المخترعون مايشاءون من اختراع انسان ميكانيكى يتكلم، ويتحرك كما يريد ومن اختراع طريقة علمية لتجديد الشباب أو أخرى لأطالة الحياة ، وليبحث الباحثون في عمر الانسانية كما يشاؤن وفي علاقة هذا الشعب بذلك وهذه اللغة بتلك،وأخيرا ليفكر الفلاسفة كما يفكرون وليبحث علماء الاجماع والطبيعة والجغرافيا والتاريخ وفقه اللغات وعلماء الشعوب كما يشاءون، وليسر نظام الوجود كما يسير ولتكن هناك « حقيقة » سنصل اليها يوما أو لم تكن

فكل هذا لايجديه نفعا ولا يؤثر فى حياته النفسية الهادئة المطمئنة الراضية بجهالتها القانعة باليعدعن حياة التفكير والعلم ، هل هو يأكل ويشرب ؟ نعم اهل هو يتحصل على جلباب يستر به جسمه؟ نعم ، فلماذا اذن يكد عقله فى التفكير وخياله في المطامح وهو يؤمن بأن حاله لن تتغير عما هي عليه ويؤمن بألاجدوى ولاغناء من تعلل النفس بالآمال والاحلام والخيالات ، ويؤمن أيضاً إيمانا مكينا قويا بأن العلم لن يغير حياته ولانظام عيشه ولن يفيده قليلا ولا كثيرا بل علي النقيض ربما يضعف من إيمانه ويزيد من شكوكه ويجعله حائرا مضطربا مذبذبا بينه وبين نفسه ، فهل كان العالم سيبطل عن الحركة وهل كانت الانسانية ستقف عن سيرها وهل كان الانسان سيغيب في الثري وهل كانت القيامة تقوم واليوم الآخر يعلن ورواية الحياة تسدل أستارها علي الناس وعلى الوجود لو لم تكن الكتب في المكاتب ولو لم يكن العلم فى الصدور وفى الرءوس وفي المدارس.

وفي الجامعات ولو لم يكن هناك علماء أو فلاسفة ؟ ماذا كان يكون مصير العالم والانسان لو لم تكن كتب أو علوم أو مدارس؟ أليس الناس كانوا يعيشون في عصور ماقبل التاريخ وفي عصورنا هذه قبل نعمة الكتب ورسالة العلم ؟

وماذا ينقص هذا الفلاح الجاهل من أسباب السعادة التي يستمتع بها بعض الناس الذين نالوا نصيبا كبيرا من التعليم والتثقيف؟ أليس يجد لقمة يتبلغ بها وتعينه على العمل في نهاره وجرعة يذهب بها ظمأه وقطعة من القماش يتدثر بها ويستر بها نفسه؟ أليس له أب أو أم أو اخوة أو زوجة او ابناء يجلس اليهم حين يفرغ من عمله ويبادلهم الحب والحديث والبر والصفاء ، ويجد لديهم حسن السلوى عن عنائه وكفاحه وفقره ؟ وماذا يريد هو من المال او من المجد وهو لا يطمع في أكثر من الحصول على قوته وقوت اولاده وعلى ضمان راحتهم وتخفيف آلامهم وعلى أن يخرج المحصول مرضيا يمكنه من سداد الجاره للمالك او ديونه للدائن اومن سداد المصاريف التي بذلها وأنفقها عليه في أوقات الغراس والبذر ؟ هل هو يطمع في سعادة أكثر من الجلوس الى جماعة من اخوانه واصدقائه على قارعة طريق أو ضفة نهر أو شاطيء بحر أو علي مصطبة أو في « مندرة » أو على « جرن » الغلال أو في حانوت القرية يتبادلون الاحاديث المختلفة حول المحاصيل الزراعية وحول صنوف الوباء « والنداوي » التي تلحق بالزرع وبخاصة القطن؟

أليس عقله نقيا طاهرا أجوف من اضطراب العلم وتذبذب التفكير غارقا منغمسا بكلياته وجزئياته فى بحر الجهالة الواسع الهادي، الحالم المطمئن الى مصيره ؟ أليس يعتقد ان العالم والجاهل معا سيتقابلان في الآخرة وسيتساويان معافى مرتبة واحدة وسيكون الكبير كالصغير والعظيم كالحقير والغني كالفقير ، فلن يأخذ العالم معه فى قبره أكثر مما يأخذه صاحبه الجاهل معه في لحده ، ولن يكون شأن العظيم فى العالم الأخروي أحسن حالا من شأن الحقير ، بل يكونون جميعا كأسنان المشط لا تفاوت ولا فروق ؟ ؟

واذا كانت الشمس تشرق من الغرب او تغرب في الشرق أو كانت الحروب خيرا أو شراً أو كان جحيم الحرية خيراً من فردوس العبودية او شراً منه، فماذا يعود عليه هو من كل ذلك وهل سيؤثر على نظام حياته أو بمعنى آخر هل سيؤثر على أسعار القطن وارتفاع السوق ؟ ليكن العالم كله ناراً حامية وحرباً زبونا ما دام سينتج من هذا ارتفاع الاسعار في مزروعاته ! ليتجادل العلماء كما يشاءون في نظرياتهم . وليفض الجدل الى الكفاح والى الحرب فلن يغنيه فتيلا ولن يشغل من عقله ومن نفسه وقتا للتفكير في هذا ما دام مطمئنا الى جهالته وراضيا بما يعلم فى عزلته النائية ومصلاه الهادئة وقريته الساجية !

في هذه الجهالة السعيدة بطمأنينتها وقناعتها ، وكفافها ، القانعة بما تعرف الراضية بما هي فيه وبما شاءت لها الاقدار ، البعيدة عن

صخب الوجود وعن عراك العلم و كفاح الكتب ، يعيش فلاحنا المصري عاكفا على نفسه مستمتعا بهذه الراحة الكبرى، راحة السر وبهدوء الضمير واطمئنان العقل ورضاء النفس ، قانعا بعيشه على كفافه وشظفه وعسره ، مؤمنا معتقدا بتلك الارادة الالهية العليا المقدسة التى تدبر حياته وتنظم مصيره وتختار له ما له ، مفوضا أمره ومصيره اليها وحدها تحدث به كيف تشاء وما تريد، منعزلا عن العالم وجهوده واضطرابه وعن العلم ونظرياته وتعقيده وتفكيره وكده وبحوثه ، راضيا لنفسه بتلك القطعة من الارض الضيقة يحصر فيها جهوده الجسمية ويعالج فيها أعماله المعيشية فى هدوء وفي وداعة وفي ايمان قوي مكين لا دخل فيه ولا ضعف، ايمان العبد الضعيف بالهه القوى العظيم، ايمان الفناء بالبقاء الخالد، والجزء الأصغر بالكل الاعظم!

في هذه الجهالة السعيدة إذن وفي هذا الكهف المتعبد الخاشع البعيد عن شهوات الناس ومطامح العباد يعيش فلاحنا سعيداً بجهالته على الرغم من شظف عيشه وبؤس حاله ، واذا كان العلم سعادة عند بعض الناس فالجهالة أيضا سعادة ونعيم عند البعض الآخر، أو بعبارة أخرى اذا كان للعلم سعادته فللجهالة أيضا نعيمها، وهذه الجهالة كما قلنا هي نعيم فلاحنا الذي يشعر به ويستعيض به عن سعادة العلم ونعيم النور ! ، ولعلنا بذلك قد كشفنا الى حد ما عن هذا العالم الباطني لفلاحنا بحسب ما يتفق والحق والواقع ، ولعلنا بذلك قد أرضينا ضميرنا الذي لا نعمل الا بأمره وعلى هداه !!!

الفصل الرابع

المرأة فى ريفنا

تحدثنا في الفصل السابق عن حياة الفلاح المصري وعن خلقه ونفسيته بما سمحت لنا معرفتنا به وبما استطعنا أن نجلي صورته على وجهها الحق أو القريب من الحق للبيئات المدنية التى تجهله ، ونحب الآن في هذا الفصل أن نتحدث أيضا عن المرأة الريفية كما تحدثنا عن الرجل، لأنه اذا ذكر الرجل فيجب أن تذكر معه المرأة جنبا لجنب ليتآخي النوعان ويتآلف الشقيقان

نظن أن القارىء الكريم قد يكون كوّن لنفسه الآن رأيا تصوريا في المرأة الريفية المصرية بعد ان وقف على ناحية من حياة الرجل الريفى المصري وخلقه ونفسيته ومركزه الاجتماعي العام ، وذلك لأنه قد عودتنا الانسانية وكذلك التاريخ أن نرى تطور المرأة يلازم دائما تطور الرجل، وان الحكم على الرجل في أى أمة من الأمم يتبعه حتما أو غالبا الحكم على المرأة حكما متناسبا متضامنا مع الحكم الأول ، ومادمنا الى الآن قد فهمنا بعض الفهم مركز الرجل في القرى فليس بعسير علينا اذن أن نفهم بعض الفهم أيضا مركز المرأة !

نرى من الواجب علينا قبل أن نبدأ فى الحديث عن المرأة في الريف أن نسجل لها فى هذه البداءة حسنة هي خير حسناتها وفخرا هو خير فخار في جهادنا النسوي ، ذلك هي أنها خير ساعد لرجلها وأحسن معين لشريكها كأنها تفهم حق الفهم مركز المرأة بأزاء الرجل وواجبات الزوج حيال زوجها، وكأنها تقدر حق التقدير معنى الشركة الزوجية ومعنى التعاقد الروحي الذي هو خيرما نريده نحن أنصار المرأة

المرأة القروية على جانب كبير من النشاط الحي العملي ومن الوفاء لزوجها ومشاركتها اياه فى عمله مشاركة فعلية ، فهي تخرج معه سافرة الوجه أمام كل الرجال ، لا تتحرج ولا تتقنع بقناع قد يحجب وجهها وقد لا يحجب سوءتها ، تخرج معه الى الغيط أو الى الحقل وتسحب معه مواشيه وحميره وأغنامه ، ترعاها في الحقول والمراعي وتسقيها من الترع وتقوم بأ كلها وبحاجاتها جميعا ، تقف بجانبه في الغيط تساعده في عمله ، وقد تحمل الفأس مثله وتفلح بها الارض أيام الغراس ، وقد تسهر بجانبه ليلا وتكشف عن ساقيها وتشمر عن سواعدها وتروي الارض ، وقد تمسك هى المحراث بجلد كريم وصبر جميل أو تحمل الردم والسباخ مع الرجل ، تجلس على النورج أيام الدراس ولاتخشي على نفسها هجير الحروقت الظهيرة ولاتشفق على وجهها السافر من أن تلفحه الشمس أو يسفعه التراب ، وعند الحصاد تراها خير معين لزوجها ، وأحيانا تجدها موفقة

عليه فى عمله وأشد منه نشاطا وتوفيقا . فنى أيام جنى القطن وهو موسم الفلاح تجدها جنبا لجنب معه مشمرة عن ملابسها يجري النشاط في دمها فيزيدها نضرة وجمالا تحت الشمس المحرقة لاتكل عن العمل ولاتتبرم من الكد ولاتشكو من التعب ولاتتأذي من الشمس ولا من الشوك المبثوث وسط الزرع بكثرة

فى كل هذه المواقف من العمل تري المرأة جنبا لجنب مع الرجل سافرة كاشفة عن وجهها لكل رجل في الغيط أو في الطرق العامة أو فى دارها ، فهى لاتعرف للقناع أو للحجاب سبيلا أو حاجة فقناعها هو عفافها، وحجابها هو شرفها، هو ثقتها بنفسها وأيمانها بطهرها ثقة تهيمن على كل ملكاتها وإيمانا يتغلغل في كل أعضائها ، وماذا يجدي القناع للمقنعات اذا كان وراءه نفس تلعب بها الاهواء المنكرة الخبيثة ووجه تحماق فيه عينان براقتان حائرتان يكشفان عن غرض سافل وينمان عن هوى مجرم ويترجمان عن عهر مكتوم واستعداد محبوس للشهوات الوضيعة ، لماذا تلجأ الى ذلك القناع وهى تري في نفسها قدرة كافية لأن تجالس مع الرجل وتحادثه وتعامله وتسايره محتفظة بجمالها وبعفافها وبشرفها، معتبرة اياه أخاها لا خصمها ، لانحسب إلا أن القناع على النقيض يزيد في الاغراء وفي الفتنة ويساعد على التهتك وعلى الفساد الخلقى وعلى الغواية ، ولقد أذكر هنا قول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى : « من ألزم لوازم الحجاب أنه يهيء الذهن فى الرجال والنساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو

سماع الصوت » وقال أيضا : « لاريب فى ان استلفات الذهن الي اختلاف الصنف من أشد العوامل فى أثارة الشهوة »

وكل هذا متفق وطبيعة الناس وبديهة العقل والمنطق فكلما اعتدنا علي شيء الفناه وأصبح لدينا أمرا عاديا لانأبه له كثيراوكلما بعد عنا شيء وحيل بيننا وبين معرفته ورؤيته كلما ازداد لهفنا عليه وتقصيه ، والقناع اذن عامل كبير علي جعل المرأة مغرية للرجل وقد يتخذ فى كثير من الاحيان عند كثير من النساء للغواية والفتنة والتجميل ، وقد يتخذ ستارا لبعضهن يرتكبن من ورائه ماتسول لهن نفوسهن ومايشاء لهن الهوي بعيدات عن الانظاروعن الاقاويل مؤمنات بأنهن فى منعزل عن الكاشحين والعذال وعن الشبهات،

من الاحتقار للشرف أى احتقار ومن الزراية بمعنى العفه أي زرايه أن تكونهذه القطعة السوداء أو البيضاء من القماش أوالحرير الشفاف هي ضمان هذا الشرف وهي الحارس على هذه العفة دون أي اعتبار للوازع الخلقي ولوحي الضمير وضابط القلب!

اذا كان السفور مدعاة الى تدهور الخلق كما يريد أن يقول بعض الجامدين الذين لايعرفون في الحياة الا : لا ! فلماذا تكثر حوادث السطو علي الاعراض فى المدن عنها في الريف والنساء في الاولى معظمهن وخصوصا الطبقة الوسطي متحجبات متقنعات بهذا لستار الصفيق وبهذا « الحارس القوي الامين ؟

ليس السفور هو الذي يفسد الخلق أيها الجامدون وإنماهو سوء

التربية الحقة الكاملة الذي يخرق كل حجاب ويفتح على المرأة كل باب من الفساد كما قال بطل الدعوة النسائية المرحوم قاسم أمين

تخرج المرأة الريفية سافرة كما قلنا ومع ذلك لايحدث شاب نفسه أن ينظر اليها نظرة خبيثة ولاهي تقربه منها وتغريه وتبادله الغمز واللمز تحت ستار شفاف بمعزل عن الانظار ، لان كل منهما يري فى الثانى أخاه كل يوم فلا حاجة من التغامز والاستشفاف والبحث عن مواضع الجمال وأما كن السحر والفتنة والاغراء ، ومع كل هذا جميعاً فليس السفور مطلقا باعث على الغواية والخضوع لسلطان الجمال فليس أسباب الفتنة مايبدو من أعضاء المرأة الظاهرة كما يقول المرحوم قاسم أمين بل من اهم أسبابها مايصدر عنها من الحركات فى اثناء مشيها ومايبدو من الافاعيل التي ترشدعما في نفسها

وكم نأمل نحن انصار المرأة ان نري كل نسائنامثل المرأة القروية يسفرن عن وجوههن ويمزقن الذي يسمونه حجابا ويخرجن الي العالم والى الانظار والي الحياة ليبعثن فى الجو المصرى القوة والحركة والنور والجمال والخير وليعطرنه بورودالحق وأزاهير القداسة والجمال والسحر والفتنة ، لقد حان الحين بأن نعيش في صراحة وشجاعة وفي نور بعد أن سئمنا وعفنا العيش في الغموض والجبن والظلام ! نريد أن تخرج المرأة المصرية من محبسها المظلم وعالمها الضيق الى الفضاء الواسع الحر ، لتعرف مركزها وتقدر واجباتها وتعمل مع الرجل في اسعاده وهناءته ومشاطرته البؤس والنعمى على السواء

وتشاركه في العمل على خدمة البلاد وعلى سعادة الانسانية جميعا وتأخذ نصيبها معه من الواجب حيال الاصلاح الوطني والبعث القومي، نريد أن تدخل ميدان العمل والانتاج متسلحة بمواهبها النسوية الراقية وبقدرتها على تجميل الوجود للرجل وعلى بعث القوة والنشاط في نواحي العمل والانتاج المختلفة، نريد أن نحس بأثر « رسالة المرأة » في الرجل وفي الحياة وان نخضع لالهام المرأة ونعمل بوحيها! كم نتمنى ونأمل أن نرى منا نساء يبعثن بالهامهن وبجمالهن وبسرهن عظمة العظماء وفلسفة الفلاسفة وأدب الادباء واختراع المخترعين ويخلقن بهذا الالهام العالي وبهذا الايحاء القدسي ما خلقت نساء أوروبا وأمريكا من أمثال «ماركوني» الذي لم يخترع تليفونه اللاسلكي إلا حينما أقعدته كل السبل عن الاتصال بحبيبته ففكر في خلق هذا التليفون اللاسلكي الماركوني ليرضي به حاجة نفسه من حبيبته قبل أن يفكر، أن يرضى به حاجة الانسانية جميعا من نفعه واستخدامه! نريد اذن أن يبرز نساؤنا الى الوجود الحي ويقمن برسالتهن الكبرى ويتولين عملية البعث والخلق!!!

كم هو جميل عند ما ترى قبيل الغروب جماعات النساء كسرب الطيور حاملات جراتهن من الفخار في عجب وتيه متوجهات الى الترع متحدثات في طريقهن بأعذب الاحاديث، وأين عذوبة الحديث في خير من النساء؟

تمشي تلك النساء سافرات الوجوه في حشمة وجلال، مبتسمات في

عفة وكمال ، تنسلسل أشعة الشمس الذهبية الوردية الغاربة بين سعف النخيل وأوراق الصفصاف المتدلى لتقع على وجوههن النضرة الجميلة فتكسبها حمرة الشمس الوردية جمالا لتعوضها بذلك الجمال عن نضرة النعيم وترف الغنى ، هذه الوجوه النضرة الجميلة الناعمة تراها في بساطة جمالها وعفو طبيعتها لا تلجأ الى مسحوقات الكيميا ولا أصباغ المدنية ، بل هي الجمال كما أراد الله أن نحبه ونعشقه فيه ، لم تفسده يد الانسان ولم تلوثه أصباغ الصناعة ، جمال الله لا جمال الانسان !

ونحب أن نقول بهذه المناسبة ونقرر حقيقة لا نشك فيها هي أن المرأة الريفية من جهة « النسائية أو الانوثة » تختلف كثيراً عن اختها المدنية، فالأنوثة في الثانية اكثر حياة وقوة وألين رخاوة ونعومة وأشد اغراء وفتنة وسحرا، وذلك لأنها تحسن طرق الاغراء والفتنة فى حديثها وفى حركاتها وفي نظراتها بخلاف اختها الريفية فان جمالها ينقصه « الحيوية » وتنقصه أيضا القدرة النسائية على البعث والخلق والايقاظ ، وهي اذا كانت جميلة لا تحسن كثيراً أن تجعل من جمالها سحرا وفتنة للقلوب وغذاء للعقول ووحياً للافكار كما قد تفعل جميلات المدن الفاتنات !

سبق ان قلنا ان المرأة الريفية خير شريك للرجل بكل ماتسعه معاني الشركة ، ولكن ماذا تعمل غير عملها العملي فى الغيط ؟

يكاد يكون برنامج عملها اليومي المنزلي كالآتي : — لا تلبث

أن تصحو من نومها حتى تحتلب جاموستها أو بقرتها وتزيل ما تحتها ، ثم تكنس دارها وتخرج حاملة جرتها لتملأها من الترعة . وان كان لديها فراخ أو ما اليها من بط وأوز تقدم لها طعامها ، واذا لم يحضر زوجها في الغداء حملت سلتها وبها غداؤه وتوجهت اليه فى الغيط تقدمه له ، وعند الغروب تخرج كما قلنا الى الترعة تغسل أطباقها أو تملأ جرتها ، ثم تعود لتطبخ للعشاء اذا كان لديها ما تطبخه ، ثم ينقضي النهار ويعود اليها زوجها . وطبعا ان كان لديها عمل في الغيط مع زوجها تشاركه فيه .

هذه الأعمال البسيطة أبلغ حدود البساطة فى حياة المرأة المنزلية هى كل ما تعمله المرأة تقريبا فى يومها ، لانه من الطبيعى ليس لها منزل كما نفهمه يحتاج الى التنسيق والعمل الدقيق الطويل ، وفى فترات راحتها تجلس الى جاراتها في الحارة او في الدار يتبادلن الأحاديث المختلفة والحديث شجون كما يقولون فيذكرن فلانة التى ستتزوج والاخرى التي طلقت والثالثة التي أحضر لها زوجها جلابية جديدة أو خلخالا ثقيل الوزن والرابعة التى ضربها زوجها ضربا مبرحا لأنها لم تبع شيئاً مما عندها ليشتري به دخانا أوشاي ، وهذه الأحاديث المختلفة لا تخلو دائما من نميمة أو اغتياب ، وهذه هي اسوأ ظاهرة خلقية في المرأة الريفية ، كثيرة الحديث ، كثيرة الشجار لان حدود أعمالها في المنزل قليلة ودائرتها ضيقة ، ففى أي شيء تقضي فراغها اذا لم يكن لهـا عمل فى الغيط ؟ فى الحديث

حيث تجوز به المحبوب والمكروه والمألوف وغير المألوف ، وهي اذا لم تجد لها عملا تعمله أخذت تقطع الوقت بهذه الأحاديث الطويلة الفارغة أو أخذت (تعدّد) ان كانت محزونة وتلك تكاد تكون عادة شاملة في ريفنا كما يقول استاذي الجليل الدكتور طه حسين !

ظهر لنا الى الآن ان المرأة الريفية خير ما تكون وفاء واحتراما لرجلها ، تساهمه معه في أعماله العملية وتأخذ نصيبها معه في السعي حول رزقهم وحياتهم ، ولكن ما لون حياتها المنزلية وأعمالها الداخلية التي هي صلب واجباتها واولاها بالعناية والاهتمام ! كيف تدير منزلها و كيف تسوس مملكتها لو صح أن يكون لها مملكة ؟ كيف تقوم بتربية اولادها أو بعبارة أدق وأهم كيف تقوم بوظيفتها الكبرى ؟

تعيش المرأة في القرى في منزلها عيشة مهملة قذرة بأوسع معني تتصوره من الاهمال والقذارة ، فهي كما تعلم جاهلة جهلا فاحشا فلا نعجب كثيراً اذا رأيناها في منزلها صورة صادقة من جهلها وغباوتها ، حتي لو ان نابليون لو كان قد رآها في دارها وحياتها لأصدر مرسوما رسمياً بانكار وابطال ما قاله عن المرأة هذا القول الخالد : « المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بيسارها » نعم ! كذلنا نيأس نحن أنصار المرأة المصرية من النجاح فى ناحيتنا النسوية كلما رأينا العدد الاكبر والغالبية العظمي بل الساحقة من نسائنا على هذا

الجانب المخجل من الجهل ومن الاهمال ، ولكننا نعلل النفس بالآمال ولا نريد ان ندع لليأس سبيلا الى قلوبنا لانا نؤمن بسنة التطور وبقانون الحيـاة ولو أن تحقيق هذه الآمال فى ريفنا قد يكون لا يزال بعيداً مستكنا فى بطون الغيب ،وبهذه المناسبة نوجه الى القائمات بالنهضة النسوية وبخاصة الى الزعيمة الكبيرة السيدة هدى هانم شعراوى رجاء ماؤه محض الاخلاص وحب الاصلاح والنهوض الاجتماعي والتعليمي والادبي لنسائنا عامة ، ان يوجهن جانبا كبيراً من عنايتهن وجهودهن المشكورة المحمودة الى القرى والى الريف المصرى فهنالك يجثم الخطر الوبيل على تقدمنا ، وهنالك يربض الداء الكمين الذى يهدد نهضتنا ويعوقها عن الازهار والنمو !

حمدنا للمرأة الريفية مشاركتها للرجل في اعماله الخارجية وأعجبنا بنشاطها ووفائها له أبلغ حدود الاعجاب ، ولكن لا يمكننا أن ننسى أو نغفل ان تلك الطاقه الجميلة من الزهر يتخلل ورودها وأزهارها السم والشوك !!

تصورى معي ايتها القارئة وأيها القارىء امرأة لا تزال يدها ملوثة بأوحال البهائم والمواشي ثم تضن عليها بالغسيل من الكسل أو من قلة الماء ، ولا تأنف أن تشرع مع كل ذلك في عجين خبزها أو عمل جبنها أو حليب لبنها ، تصوروا امرأة قلما تعرف أن تحوك جلابيتها أو ان تغسلها غسيلا ترتاح اليه العين وتميل اليه النفس ، تصوروا امرأة لا تفهم عن سياسة دارها وتدبيرها اكثر مما تفهم

من زريبة مواشيها ، تصوروا امرأة لا تعرف كيف تكون أماً مطلقا بكل ما تسعه هذه اللفظة الكريمة المقدسة ، تترك اطفالها في فسحة الدار أو فى الحارة يعبثون ويتمرغون في التراب وعلى الاكوام حيث هناك مجمع قاذورات القريه وأوحالها من دورها المختلفة، ولقد تلقى الأم طفلها احيانا فى القاعة أو فى فسحة الدار ينتحب من البكاء والعويل وتقفز عليه الكتاكيت والبط والفراخ تعبث بعينيه وتلعب على وجهه ثم تذهب هي لتقضي حاجه لها أو تجلس الى جماعه من النساء ينلن الناس بالحديث والغيبة وأما الطفل فليمت أو فليعش (وهو وبخته) ، وكم من الاطفال عندنا كانوا يكونون نابليون أو الاسكندر أو فولتير لو عني بتعليمهم ولو عنيت بهم أمهاتهم فى عهود الطفولة وتعهدتهم في هذه السن التي يتأثر بها الطفل بما تلقنه له وماتوجهه اليه وتعامله به أمه، فليس من أحد على مانظن ينكر أثر الام في ابنها ، وهذا نابليون يحدثنا عن أمه وعن أنها الاثر الاول والعامل الاقوى فى عظمته وفيما صار اليه اسمه وصيته ،

ولكن هل ننتظر من أمهاتنا وخصوصاً فى الريف ذلك الاثر وهذا الواجب ؟

كدنا نيأس حقاً أيها القائمات بشئون المرأة ولو أننا نؤمن بأن لا يأس مع الحياة كما قال المرحوم مصطفى كامل ! هنا يجثم مرض وبيل وداء خطير كما قلنا يهدد كياننا القومي وأسرتنا وأطفالنا وناشئتنا نخشى ان يفتك بمجموعنا مالم تمتد اليه يد الاصلاح والعلاج،

فوجهن عنايتكن قبل كل شيء الى موضع الداء الكمين الخطر هنا ، الى المرأة القروية التى تحيا حياة كلها جور وأهمال وجهل وقذارة نخجل ونبكي عليها ومن أجلها ، فيارجالات مصر ويا أنصار ونصيرات المرأة ! عطفا ولو قليلا على القرى فهنـاك يكمن الداء وهناك يجثم الخطر وينتشر الوباء ، تلك وصمة كبيرة في جبين فخارنا القومى لن يرضاها نصير للمرأة فاعملوا يا أنصار المرأة على ازالتها لتمزقوا صحيفة عار وخزى في سجل نهوضنا القومي واصلاحنا الشامل وأحيائنا المصري !

***

نريد الآن بعد ان كشفنا عن ناحية من نواحي حياة المرأة الريفية ان نصور تلك الناحية الداخلية البحتة للمرأة في الريف وهي الحياة القروية الزوجية .

نظن أنه قد أصبح يسيرا علينا الى حدما أن نتصور تلك الحياة الداخلية مادمنا وقفنا الى حدما أيضاً على حياة الرجل ونفسيته ومركز المرأه وحياتها في القرى ، وهذه الحياة الداخلية النفسية قد تصح أن تكون المقياس الذي يساعدنا على تصوير وفهم الحياة القروية عامة وبخاصة الداخلية منها تصويرا وفهما أقرب الى الصدق ، وبهذا يمكننا أن نستجمع ونحصل فكرة ماعن هذا الجانب من الحياة المصريه المجهول أو الغامض لمن لا يعرفه أو لا يريد أن يعرفه والا فأين توجد حياة أغزر مادة للكاتب وأوسع دائرة لخيال

المصور وتأملات الفنان من حياة تجمع الرجل والمرأة تحت سقف واحد يعكس كل منهما على الآخر خلقه وذهنه ومذاهبه ويتبادلان الاخذ والعطاء ، وحيث تبدو فيها حسنة كل منهما وسوأته بارزة للناقد وواضحة جلية لريشة المصور ؟

ذكرنا حين تحدثنا عن الرجل في الريف انه لا يكاد يفقه أو يشعر بمعنى « الحب » الذي قد نفقهه هنا ونشعر به ونقدره ، ونريد الآن هنا أن نشرك المرأة أيضا في هذه الصفة أو هذه النفسية الشعورية . فهي بعيدة كل البعد عن حياة « الحب » غريبة عن الشعور به شعوراً ساميا نبيلا يحرك عواطفها بأنبل المشاعر وأسمى المعانى ويرقق خلقها ويهذب كائنها ويملأ وجودها حياة وقوة ونوراً ، هى كأخيها الرجل لا تفهم من الحب إلا ذلك الضرب الخبيث من الاستغواء الجنسى والا هذا النوع الحيواني من أسفل دركات الحب ، فهذا القلب الذي يسكن بين جنبيها لا يخفق بالحب السامي الخالد فى نبله وفي عليائه ولا يكون رسول رحمة بالناس أو طبيب أدواء الرجال حتى لو استفحل الداء وعظم المصاب

يقول « جوت » فخر الالمان « ما قيمة العالم بأسره في نظر القلب اذا ما خلا من نعمة الحب ؟ » ولكن المرأة الريفية المصرية بخاصة لا تقوم بوظيفة قلبها الذى منح لها ليخفق وليطرب وليحب ، ولذلك فقيمة العالم عندها شيء كلا شيء وعدم كوجود ، واذا كانت حياتها هكذا من الجمود الروحي ومن الموت الشعوري ومن البلادة

في الحس وفى العاطفة فهل نتصور أن يكون لها حياة روحية بجانب تلك الحياة المادية الكثيفة تعيش فيها بقلبها ومن أجل قلبها لتجمل وجودها وتزيد حياتها خصبا وانتاجا ونورا ؟ وماذا تكون تلك الحياة التى يحياها الناس لو لم تكن خصبة منتجة منيرة ؟ وكيف لنا أن نصبر على مضض حياة لا نشعر فيها بحب يخفف عنا آلام تلك المرحلة من العمر ويغذو عواطفنا وميولنا وذهننا ، ويخلق عبقريتنا ونبوغنا ويوقظ خامد شعورنا ، وينسينا مرارة الزمن وقسوته وهموم العيش ونكده ويجعلنا نهزأ بالشوك ونسخر من الألم ونتلذذ بالعذاب ونستحلى العلقم والصاب ؟ وكيف لنا ان نعاني من هذه الحياة ما نعاني ونرضى بنكدها وبظلمها وبشقائها صابرين مرغمين ثم لا نحس بأن لنا قلوبا فى حاجة الى أن تخفق والى أن تحب وخلقها الله لتنمو وتنهل من نبع الحب وتزدهر وتحيا في رياض العشق ، فحجرنا عليها انما هو تعطيل لوظيفتها وجحود وكفران بنعم الخالق الاعظم ؟ ومتى كان الحب كفرا والعشق البرىء جريمة في أسفار الله المقدسة وفي شرائع العدالة ؟

ولمن اذن خلق نور القمر وندى الازهار وعبير الرياحين وظلال الشجر وزقزقة العصافير ونوح الحمام وغناء البلابل ورجرجة الماء ومداعبة النسيم

اذا لم يكن للحب ، واذا لم يكن للأخوين الحبيبين ، الرجل والمرأة ؟

اذا لم تكن حياتنا التي نحياها حياة قلوبنا وعواطفنا وشعورنا وأرواحنا فانا لنؤثر أن تنتزع منا هذه القلوب التي لاتخفق ولاتحب حتى لا نشعر بوجودها بين جنوبنا معطلة خامدة ذليلة أسيرة ، وحتى لا نطأطىء الرأس ذلة وصغاراً أمام ظلال الشجر ونور القمر ورجرجة الماء !

فلتأخذ منا طائعين راضين ان عجزت عن القيام بوظيفتها وواجبها، فلن نريدها أبداً لعب الاطفال ولا عرائس الصبية ، ولن نذرف عليها دمعة !!!

ونعود الآن الى موضوعنا ، اذا كان هذا هو حياة الرجل والمرأة في الريف من ناحية العواطف والشعور أو بعبارة أدق من الناحية الروحية فهل ننتظر ونتصور ان تكون الحياة العائلية الريفية مدعمة بالحب قائمة على التوافق والرضى من ناحية الجنسين؟ ولكن كيف لنا أن نسأل هذا السؤال وننتظر هذا الجواب ونحن نرى أن معنى « الزواج » في مصر عامة وفى القرى بخاصة لا يفهم منه أكثر من أنه وسيلة او بمعنى أصح معمل لتفريخ النسل كمعامل الكتاكيت، فالزوج او الزوجة اذا تعطل هذا المعمل عندهما أو ابطأ فى التفريخ والتخريج صبا اللعنات على الزواج واستغاثا لله وللأولياء وللعرافين وللدجالين أن ينتظم هذا « المعمل » وأن يعاود حركته وأنتاجه ، حتى أصبح الحرص على أنتاج هذه « المعامل » شهوة متحكمة

مستبدة بأمرها لدى الكثير جداً من أبناء مصر المتزوجين وبخاصة الريفيين والريفيات منهم .

ومن أشد المصائب والنكبات التي تتألب على هذا الفلاح أن تجد له ما لا يقل عن خمسة و ستة اولاد وقد يبلغون أحيانا ثلاثة عشر او اربعة عشر ومع ذلك قد لا تجد في بعض الاوقات رغيفا في داره ، فاذا حدثته بوجوب تحديد النسل بحسب الرأي الطبي جلبا لمنفعته ودرءا للشقاء وللبؤس عنه لوى وجهه عنك وقد يتهمك في دينك أو في عقلك وشعورك !!

لا يفهم كثير عن الزواج في مصر الا أنه وسيلة الى اشباع الشهوات الجسمية وأرضاء حاجات البدن والحس ، والا أنه طريقة من طرق الاستثمار والاستغلال والتجارة بالفتيات الطاهرات البريئات من أساليب ومن ظلم وتحكم الآباء والامهات !

ما العلاقة بين المال والقلوب والمستقبل أيها الآباء المجرمون فى حقوق أولادكم : وما معني زواج تزيفون به ما تسمونه وثيقة الزواج افكا وزورا ؟ دون ان يكون للزوجين وحدهما رأي في هذا الزواج ؟ وما معنى زواج تزف فيه مجهولة الى مجهول وتساق فيه الفتاة البريئة سوق الانعام الى من تجهله وقد تبغضه ؟

ومن المدهش حقا أن نجد الناس هنا في مصر حتى في الريف اذا شاءوا أن يشتروا حزمة من الفجل أو الكراث أو أقة من اللحم أو أي صنف مما تعودوا ان يأكلوه أو يشربوه لأشباع بطونهم

وتغذية جسومهم حرصوا جد الحرص في انتقائه ونقده بين الرفض والقبول وتغليب الذوق الفني في الأكل أو في الشرب أخيراً ثم أخذوا يساومون البائع ويجادلون التاجر ليغلبوه على رأيهم ، ولكن اذا شرعوا في الزواج مسألة المسائل ومشكلة المشاكل ومفتاح المستقبل الغامض اندفعوا كالمسحورين او كالعمي الذين لا يبصرون دون ان يحققوا وينقدوا كما كانوا يحققون وينقدون حين كانوا يبتاعون الفجل او البقول ، فكأن بطونهم أغلى لديهم وأسمى من من قلوبهم ومن ارواحهم ، وكأن الحاضر لديهم أولى بالعناية من المستقبل وكأن الزوجة او الزوج لا يتساويان في السوق مع الكراث او البطاطس ، واخجلاه بل واحسرتاه !!

ولقد يحضرني هنا قول المصلح الأول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى هذا القول المقتطع من قلبه والمنبعث من روحه ، قال رحمه الله : « أرى الواحد من عامة الناس لا يرضي ان يشتري خروفا او جحشا قبل ان يراه ويدقق النظر فى أوصافه ويكون فى أمن من ظهور عيب فيه ، وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامها الفكر »

واذا كانت هذه الحال وهذه الفكرة ستدوم فستشتد أزمة الزواج عندنا تعقيداً وقحطا ما دام هذا الزواج التجاري يهدد العائلات ويبعث الفساد في البنين والبنات ويقوض الاسرة ، وكم أحب هنا أن اذكر قول « ماكس نوردو » فى هذا الموضوع

قال « متى بطل النظر الى المصالح المادية فى أمر الزواج وعادت المرأة مختارة في ميلها غير مضطرة الى بيع نفسها. وأصبح الرجال يتنافسون على أحراز ودها بذواتهم لا بأموالهم ووظائفهم، فحينئذ يصبح الزواج حقيقة نافعة لا أكذوبة فاضحة كما نشاهد في عصرنا هذا وهنالك ترفرف روح الطبيعة السامية على الزوجين وتبارك كل قبلة من قبلاتهما، فيوضع الولد محوطا بهالة من حب أبويه وتكون هدية يوم ميلاده، تلك العافية التي يورثها ذريتهما زوجان كلاهما مستجمع من صفات جنسه ما يحبب فيه قرينه »

ونريد الآن بعد هذا أن نتحدث عن الزواج في الريف لنكمل الى حد ما « الصورة الريفية » ، ولكن اذا أمكننا أن نقف على « الحب » عند الرجل والمرأة على السواء في ريفنا حين تحدثنا عن هذا قبل الآن فيمكننا بكل يسر وسهولة أن نتصور وأن نفهم لون الزواج وطريقته في الريف

فتى طيب وفتاة بريئة لا يعرفان من أمر بعضهما شيئاً ، وقد يكون كل منهما مجهولا للآخر كل الجهل، هذا فى الشرق وهذه في الغرب ثم يسمعان أو لا يسمعان انهما مخطوبان وأنهما سيصبحان زوجين وسيعيشان معاً تحت سقف واحد وسيكونان عضوي شركة روحية أبدية وسيصيران رأسي أسرة

لماذا كل هذا ؟ لأن الآباء أهون لديهم طعنة الخنجر وضربة الرصاصة التى تصمى وتقتل من أن يعرضوا فتاتهم لخطيبها وشريكها

فى الحياة وفي المستقبل الذي هو ملك لهما وحدهما حتى يعرف من أمرها ولو بعض الشيء وتعرف هي منه ولو بعض هذا البعض ، ولا يزالون للآن يعدون هذا فجورا دونه أي فجور وبدعة ليست بعدها بدعة أتت بها عصور المدنية المتحذلقة الملحدة الفاجرة ، والفتي المسكين يقبل هذا مضطرا ليوفر على نفسه عناء البحث

ومن المدهش بل من الاحتقار للعقول وللنهضة الكبرى ولآمال المستقبل ولبناء عهد جديد وانشاء جيل جديد، من الاحتقار كل الاحتقار لمبدأ الحرية الفردية وللشعور بالذات وبالكرامة أن تبقى مثل هذه الفكرة الجامدة التعصبية وليدة الماضي المظلم في هذا العصر المتأهب للحياة في اجواء الحرية والنور والعدالة واحترام الشعور والعمل للمستقبل ، من الاحتقار كل الاحتقار « لوحي الاصلاح » ورسالة الاحياء والبعث المصري أن تبقى هذه الفكرة سائدة في أجواء الاسر المصرية وبخاصة الكبيرة منها ، وفات هؤلاء جميعاً بانه لو سرنا على هذا النهج طويلا فسنقضى عاجلا أو آجلا على نظام الأسرة وسنساعد بذلك على جعل البيوت أدياراً وصوامع للفتيات الراهبات أو على جعلها مسارح للهو الفاسد والمجون المتهم، وسنشجع الفتيان والفتيات على الزواج؛ ولكن غير الرسمى ، أو بعبارة أدق وأجلى على قضاء حاجات نفوسهم وقلوبهم التي منعها عنهم الزواج الاسمي المعروف ، وفيما نراه الآن أمام أعيننا كل ساعة ما يزيد في خوفنا وقلقنا على الحياة العائلية المصرية التى

نريدها منبعا للسعادة ومصدرا للنعيم والوفاء والحب ! ، ويظهر لنا أن الآباء والامهات لم يتعظوا الى الآن بما يحدث نتيجة هذه الفكرة الجامدة السخيفة في عصر لا يتفق مطلقا وكلمة الجمود أو الظلام وأنهم لا يزالون يتجاهلون وينسون بانه لا يمكن — كثيرا — لفتى أو لفتاة يحترم كل منهما نفسه ويقدر مركزه وآماله ومستقبله أن يقبلا على زواج أعمى مبنى على الخفاء والظلام بدون ان يعرف ويفهم كل منهما الآخر معرفة وفهم الشريك للشريك ، ولكننا نؤمن كثيرا بأن الايام وبأن المستقبل وبأن الحياة نفسها ستضطرهم جميعا على العدول عن فكرتهم التي لا تتفق والحاضر ، وسترغمهم على أن يسلكوا الطريق التي يجب أن يسلكها من يفهم الحياة ومن يدرك سنة التطور التي تهيمن على العالم والتاريخ جميعا !

ولكننا لا نريد ان نترك هذه الفرصة قبل ان نقرر هنا حقيقة نؤمن بها ونحرص على أثباتها في سبيل الحق وحده ، وهي ان هذه الفكرة التي تحدثنا عنها أثر أو جانب الجمود فيها أقل فى الريف بين الطبقات الصغيرة جدا منه بين الاسر الكبيرة الريفية او المدنية ، فلقد قلنا ان الفلاح ونقصد به هنا الصغير جدا كما أشرنا الى ذلك فى « المقدمة » يعمل مع المرأة والفتاة في كل نواحي العمل وهي سافرة ، أى أنه في زواجه يكون فى الغالب قد رأى زوجه وهذا اذا كانت من قريته أو من عائلته وإلا فلا يمكنه مطلقا أن يراها ، ولكن نحن نفترض هنا أنهما ليسا من قرية أو بلدة واحدة ولا

من عائلة واحدة ، أي نفترض ونتصور الحالة التي فيها حرية اختيار الزوجين محرمة تحريما مطلقا ، فاذا كان حال الزواج هكذا فماذا يبقى اذن من معنى الزواج الذي نفهمه هنا أو الذي نتطلع اليه وننشده ؟

بعد ان يدبر الآباء مكيدتهم في كهف الخفاء والظلام ويعزمون على الاعتداء والعبث بمستقبل فتاهم أو فتاتهم ، وبعد أن ينتهيا الى رأي اخير وبعد جريمة الاعتداء على قلبين بريئين ، بعد كل هذا وأخيرا يعلم الخطيبان بخطوبتهما فيقابلان هذا الخبر بصمت ووجوم ولكن في أسى كمين أو حزن دفين ، ثم يؤتي بالمأذون المجرم الثالث بتلك العمامة الكبيرة التي يغش البسطاء والتي قد تطوي بين تلافيفها خير ما وصل اليه الناس من لؤم ونصب وكذب وتزوير ، يؤتى بذلك المحتال الذى يوهم الناس بأنه أرسل من عند الله ليبارك هذا الزواج فيذكرنا بذلك « البابا » الذي أرسل رسوله ليبيع للعباد « صكوك الغفران » ودخول الجنة الموعودة ومحو سيئاتهم ويعفو عن خطياتهم ، فاذا ماذكرت هذا المحتال الكذاب وذلك « البابا » النصاب ذكرت قول « روسو » : « ما أكثر الوسطاء بيني وبين الله ! » ، يؤتى بهذا المأذون ليكتب تلك التي يسمونها « وثيقة الزواج » ويوهمون الناس وأنفسهم أيضا بأنها عقد نتج من توافق الارادتين ومن رضى الطرفين المتعاقدين ، قتل الانسان ما أكذبه وما أكفره ! هل هذه الورقة حقا هي صدى شعورهما الحق ومرآة حبهما ومظهر ارادتهما ورضاهما لهذه الحياة الجديدة المليئة بالمسئوليات .

الجسام وبالاعباء الفادحة والواجبات الكبيرة ؟ هل هذه القطعة من الورق هي الرباط بين قلبين متحابين وروحين مندمجين لاعداد عهد جديد وتحقيق آمال كبيرة ؟ هل هذه الورقة هى كل ما نفهم من الزواج حتي اذا ما حبرها المأوذن وشهدالشهود كان الزواج وصدق العقد وكان عملا قانونيا مشروعا صحيحاً ممثلا الارادتين حق التمثيل ؟ ماهذا العبث بالقلوب البريئة الضعيفة أمام قوة المكر وسطوة الكذب ودولة التغرير والخداع ! ماهذا الاعتداء على أجسام غضة طرية وأرواح سابحة حالمة في آمالها وفي مستقبلها ونفوس طاهرة كريمة لم تعرف الخبث والاحتيال ولم تتعود بعد احتمال الاذي والصبر على المكروه والبلاء والقوة على أساغة الكذب وتجميل النصب؟ وهكذا تكتب وثيقة الزواج في معمل الكذب والتزوير وليس للخطيبين أي شأن فيها مباشر ثم يعلن للناس ويذاع ان فلانة خطبت الى فلان وان ليلة الزفاف يوم كذا كأن الامر جد لاهزل وصدق لا كذب وحقيقة لاتدجيل وغدالة لاظلم !

وبهذه المناسبة لانجد غضاضة أن نجرأ برغبة نؤمن بعدالتها وبوجوبها إيمانا قويا مكيناً لنصلح من نظام أسرتنا بحيث يساعد على تسهيل الزواج وجعله وسيلة الى الحب والى السعادة ، وتلك الرغبة القوية هي أن ننظر الى الزواج كانه عقد مدني كأي عقد ونتمه بكل اجراءات العقود المدنية فيتم مثلها بالايجاب والقبول ، واذن فنستغنى عن هذا العدد الوفير من المأذين ونستغنى عن وساطتهم

ونأمن الطرق التي يتفننون فيها والتي ليست من الشرف ولا من الدين الحق في شيء ، ونسهل بذلك عملية الزواج ونضمن توافق الارادتين ومعرفة الزوجين بعضهما لبعض ونأمن تعسف وتجارة الآباء والامهات بابنائهم وبناتهم ، وفى هذا خير وأمن واصلاح كثير !

والآن وبعد كل هذا نريد ان نصور في حدود خطتنا التى رسمناها لانفسنا طريقة الزواج أو بعبارة أدق وأصح ليلة الزفاف في الريف عند فلاحنا المصري الذي نقصده والذي نكتب هذه الرسالة في سبيله ومن أجله وحده

في ليلة الزفاف الموعودة تزف العروس الى العريس زفافا لا يخلو من البساطة ومن الجمال الريفى أيضا ، وقبل أن يذهبوا بها الى دار زوجها ينقل عفشها عصر يوم الزفاف اما على جمال أو على (عربات الكارو) وحول العفش ومعه تذهب جماعة من أهل العروس واصدقائها ويطلقون الرصاص في الجو اظهارا لفرحهم واعلانا لسرورهم ، والنسوة في طول الطريق يغنين أغنيات الريف الجميلة في بداوتها، وبعد ذهاب العفش الى دار العريس وبعد الاحتفال به وزفافه يجيء دور العروس فتملأ دارها بالنساء وبالفتيات وبالاطفال الذين يركبون كل مركب خشن الى الوصول الى العريس ليروها في زينة زفافها وفي جمال هندامها ولو يصل بهم الحال الى تسلق الحائط والتطلع من ثقوب الباب أو ثغرة في الجدار أو فجوة

في السقف ، ولكن قد نسيت ! قبل يوم (الدخلة) أو ليلة الزفاف هناك ليلة أخرى لها خطرها وجلالها وعظمتها وهي « ليلة الحنة » (الحناء) حيث يخضبون أيدي العروس ورجليها بعد اغتسالها واستحمامها وهناك في هذه الليلة تجتمع كل فتيات القرية وأطفالها ليتبركن من حناء العروس،والفتاة الناهد التي زين لهاشبابها وصباها وجمالها أن تفكر في الزواج تنافس أخواتها الاخريات على (قرص) العروس في فخذها قائلة لها : «قرصتك في ركبتك حصلتك في جمعتك» ظناً منها أو أملا لها بانها ستصبح قريبا عروساً مثلها حيث تستمتع بشبابها وتحظي برجلها بغيتها في حياتها،وعندما تعد العروس للخروج الى دار زوجها ووداع دار ابيها التي ترعرعت فيها طفلة ثم فتاة وصبية في احضان الشباب الناعمة الدافئة ، فاما أن تحمل على جمل يغطونه بملاءة حمراء في شكل خيمة أو مثلث وتجلس هي فيه ، ثم يزينون رأس الجمل ورأس المثلث ببعض الورود الحمراء أن وجدت ثم بسعف النخيل المتعالى المتراوح حول العروس وفوقها وهي في هذه الحال مع بعض أهلها أو صديقاتها ، ثم يخرج وراءها على جمال أخرى أو عربات — لو وجدت ولو كان اصحاب العرس ذوي يسار قليلا — بعض نساء القرية وفتياتها زميلاتها في عهود الشباب المرحة اللاهية بيافهم الصفراء الجديدة وجلاليبهم السوداء الشفافة ومن تحتها الجلاليب الحمراء أو الصفراء ، وقبل أن تخرج العروس من دارها الى دار زوجها يقف أحد أخواتها أو اقاربها على بابها ولا

يسلمها لاحدما حتى يأخذ في يده ما يسمونه « البلصة » ولا يمكنني وانا اخط الآن هذه السطور أن أجزم أو أنكر استمرار هذه العادة القديمة في ريفنا وبين المراتب الدنيا من مراتب فلاحنا ، ولكني شاهدتها بعيني في بعض افراح هذا الصنف من الفلاح الذي اقصده والذي أذيع هذه الرسالة من أجله وحده ؛ وأذكر اني قرأت للمرحوم فتحي زغلول باشا وصفا جميلا للافراح الريفية وذكرا خاصا لهذه العادة التى اذكرها هنا وأصفها ، فمن المدهش اذن حقا أن تبقي مثل هذه العادة المستنكرة في أفراحنا والاتكفى المدة بين كتابة فتحى زغلول وبين عصرنا هذا لمحو وسحق مثل هذه العادة الريفية ؛ ولكننا نأمل أن تنقرض بفعل السنين والزمن !

وعندما يخرج هذا الموكب يحيون العروس بطلقات نارية ذاهبة فى الجو وتكاد تصم الآذان من الضجة ، ثم تقف جماعة من الرجال بين حين وحين تلعب بالعصا أو النبوت وهي ما يسمونها « لعبة الحطب » التي ذكرناها ووصفناها حين تحدثنا عن حياة اللهو في ريفنا ، وهذه اللعبة على بساطتها وريفيتها وبداوتها لا تخلو من جمال ولا من لذة فهي ضرب جميل من ضروب الشجاعة القديمة ومظهر من مظاهر النخوة والرجولة ، ويحيي هذا الموكب أيضا جماعات من الفتيات والنساء يزغردن فى الاجواء ويغنين جماعات (CHORUS) أغانى لا تخلو أيضا من جمال ، احداهن تغنى والاخريات يتبعنها بصوت واحد له جماله وفيه حسنه ، وعلى هذا الضرب من السير يسير موكب

العروس حتى تبلغ دار عريسها وهناك ينتظرها العريس أو أحد أقاربه أو اخواته فيحملها بيده ويدخل بها الى الدار

هذا موكب العروس ، أما العريس فمن الصعب جداً أن تجده أو تراه يوم العرس وبخاصة فى عصر اليوم أو فى مغربه ، فهو يحاول أن يخفى نفسه عن العيون ، وقبل اسبوع أو اسبوعين لليلة الزفاف يدعوه أحد اصدقائه الخالصين المقربين اليه الى داره للاستحمام والاغتسال عنده ، فاذا كانت ليلة الزفاف الموعودة أخذ هذا الصديق الداعي ملابس العريس الجديدة من عصر اليوم تقريبا ، وفي ساعة الاستحمام يكون أهل القرية جميعا قد علموا بذلك فيذهبون الى دار ذلك الصديق الداعي ويجلسون منتظرين خروج صاحبنا العريس ، فاذا ما انتهى من عمله وانتهى الحلاق من تزيينه وتجميله خرجوا به وسطهم رافعين الشموع والمشاعل أما على أيديهم وأما على رءوس عصيهم الغليظة وأما في (شمعدانات) بسيطة أعدوها لذلك ، وصاحبنا العريس في الوسط أو « واسطة العقد » كما يقول ابن الرومي ، يحمل منديلا أبيض فى يده يسد به فمه وأنفه وحواليه عشيرته وأهله وأصدقاؤه مخضّب اليدين بالحناء ، وفي هذا الجمع العديد المؤلف من الرجال والنساء يؤتى ببعض أصدقائه الذين يحسنون فن الغناء والذين وهبهم الله نعمة الصوت الجميل فيتناوبون معا غناء « المواويل » التي تدور جميعا حول الغرام والمغرمين وعذاب الحب وشكايات المحبين ودلال ذوات الجمال ومالكات

القلوب واستبدادهن وعبثهن بما يمتلكن من قلوب الرجال وبخل الجميلات بجمالهن وقلوبهن التي لا تعرف الى الرحمة بعشاقها سبيلا ، وبين الحين و الحين تطلق البنادق في الجو بعد الفراغ من القاء المواويل ، ثم تنثر النساء بدرات الملح على الرجال في الموكب الزاخر خوفا من الحسد كما أظن ، ثم يستمر الموكب علي هذا النهج حتى اذا وصل او اقترب من دار العريس ومعه أصدقاؤه دفعوه بقوة وجروا به بسرعة وانسلوا به بين الجمع العديد الى داره وأدخلوه الي «قاعته» التي خصصها له أهله هو وزوجه فيأخذ بعد ذلك في فض بكارة العروس. أو مايسمونه أخذ الفلاح ، أما هم فيقفون بالباب أو خارج الدار ينتظرون خروجه على مضض ويتعجلونه في أنهاء وظيفته ببعض أغاني ساقطة لا تخلو من وقاحة ، فاذا مادخل هو عند عروسه وجد عندها جماعة من النساء من قريباته وقريباتها ، أتين ليشهدن كيف يقوم بهذه العملية الفنية التي هي لديهم من أحسن المشاهد جمالا وأبهرها فتنة ، ولست أدري أى مشهد يكون مشهد فتاة بكر تفض بكارتها على مشهد من المتفرجات المعجبات بهذا المنظر الجميل الفنى البديع كأنهن يشهدن رواية تمثل أو لعبة تلعب ، ولست أدرى ماشعور تلك الفتاة البريئة حين ترى نفسها في هذه الحال المخزية التي لا تتفق مطلقا وأبسط صنوف الشعور والذوق والاخلاق وحين ترى نفسها ملقي الانظار وهدف الابصار ؟ ومن المؤلم جد الألم أن هذه الصورة الفاحشة المخجلة المزرية لاتزال الى الآن مستعملة فى

بيوت الـكثيرين جدا من الريفيين ، ولا يزالون ينظرون اليها نظرة الاعجاب والاستحسان ، وحجة هؤلاء النساء اللائي يرتكبن هذه الفاحشة المخجلة أنهن حارسات على عفاف العروس شهداء على طهرها وشرفها ، يا لله من اعتداء صارخ على العفة والشرف !

واذا حدث أن العريس لم يحسن هذه العملية لطمته « الماشطة » وأنحته عن العروس وقامت هي بعملية فض البكارة ، مشهد مخجل فاحش يذكرنا دائما بحياتنا التي نحياها وببقائنا في هذه الوهدة العميقة من التأخر والانحطاط ، وأخشى أن أقول : الوحشية

وفي أثناء هذه العملية المهمة يتسلق الاطفال والفتيات حائط الدار وينظرن من ثقب أو فجوة الى هذا المشهد الجميل : مشهد فتاة عذراء تفض بكارتها على مرأى من جمع من المتفرجات الحارسات الشاهدات ! ثم يخرج العريس ظافراً منتصراً من كفاح تلك العملية فيقابله أصدقاؤه وأهله بالقبلات والاحضان وتستقبله البنادق بالنيران والطلقات والنساء بالتهليل والزغاريد ، وفى اليوم الثاني تطوف جماعات من النساء في القرية جميعها حاملات قطعة بيضاء من القماش ملطخة بدم العروس الذي هو مظهر شرفها وشارة عفافها وحجة طهرها حتى يرى أهل القرية جميعا أمانة الفتاة على شرفها وحرصها على طهرها ، وهنّ في هذا التطواف يغنّين بعض الاغاني الريفية الملائمة لهذه الحال مثل : « بيّضت الشاش يا عروسة ! »

تلك صورة مقتضبة موجزة من أفراح القرى ، ويلاحظ انى

اتحدث هنا عن أصغر مرتبة من مراتب الفلاح المصري كما أخذت نفسي في كل نواحي الرسالة وكما أشرت الى ذلك في مقدمتي ، ولقد دعاني الى اختيار هذا النوع من الفلاح المصري علمي ومعرفتي بأنه يكوّن في الوحدة القومية المصرية الاغلبية الساحقة على حد التعبير الدستوري

ذكرنا قبل الآن أن كلا من الرجل والمرأة في ريفنا المصري ينظر الى الحب ويفهمه بنظرة واحدة وفهم مشترك وتحدثنا عن هذا اللون من الحب كثيراً وقلنا أكثر من ذلك ، قلنا أيضا بأنه يندر جدا أن يكون زواج فى الريف نتيجة لعواطف متشاركة واحساسات متبادلة وشعور بالحب والوفاق والميل ، وقلنا ان الزواج في مصر عامة وفي الريف بخاصة رجعي جداً على أقدم نظم الجمود ووسائل الرجعية ، وبأن نظام هذا الزواج على ماهو عليه في عصرنا هذا لا يتفق مطلقا وروح العصر الحديث ولامع ميول الناس وتوجيهات عقولهم ومشاعرهم فمن الواجب علينا أن نبحث عن علاج واصلاح لهذا النظام الذي يشوه من جمال نهضتنا ويكاد يهدد بيوتنا وعائلاتنا ويقضي على آمال شبابنا في المستقبل ويشجع على الفساد والغواية أولئك الذين يمنعهم هذا النظام الاعرج الفاسد أن يعيشوا العيشة الزوجية الهادئة السعيدة المحترمة !!

واذن فقد أصبح من اليسير علينا — كما نظن — أن نتعرف الآن ونفهم ونتصور الحياة الزوجية القروية الداخليه ، فاذا كانت

هي كما قلنا نتيجة الصدف والقسر والارغام أحيانا لا نتيجة الحب والتعارف وتبادل الاحساس واشتراك الميول والعواطف كما نفهم نحن من الزواج العصري وكما نريد أن يكون في مصر جميعا، فلا تعجب كثيراً اذا رأينا أن هذه الحياة الزوجية الداخلية لا تخلو دائما من نضال وعداء وتجاذب الزوجين، فالمرأة هناك قل أن تنجو من الضرب والاهانة والتعذيب لأتفه الاسباب وأبسط البواعث

تصور معي أن الرجل قد يوسع امرأته ضربا بالنبوت وما أدراك ما النبوت ! وذلك لأن احدى نساء القرية قد أتت تشكوها الى زوجها ، أو لأنها تحفظ وتدخر لديها بعض نقود له فيحدث أن تمتنع أحيانا عن أن تعطيه ثمن لفافة تبغ ابقاء على نقوده من الضياع وتوفير الشراء وقضاء الحاجات المنزلية الاساسية الأخرى!، تصور أن الرجل في ريفنا يجد فى مناداته لزوجه باسمها عارا له وتنقيصا من قدره ومن سيادته وسلطانه وكرامته فلا يناديها دائما إلا بهذا النداء العجيب المتكبر الصلف : يابنت !

واذا ماجلس الى اخوانه أو أصدقائه في مجلس وأراد أن يذكر زوجه فتأبي عليه النعرة والكبرياء الا ان يقول : الاولاد أو العيال خوفا من أن يقول زوجي أو حرمى أو ما اعتاد المتعلمون المستنيرون أن يقولوا !

وتصور أيضا أنه اذا استولد بنتا وجم وعلت وجهه الكآبة والأسى لأنه كان يريد ولدا ولأنه ينظر الى البنت والى النساء عامة

نظرات احتقار وازدراء وأنقاص ، ولأنه يرى فى النساء عامة رأي صاحبنا « المعري »: « باعثات ركابك في مهالك مقيمات» « فوارس فتنة أعلام غي» «يلدن اعاديا ويلدن عاراً » « الا ان النساء حبال غي. بهن يضيع الشرف التليد »

بمثل هذا المنظار الاسود الظالم ينظر فلاحنا الى المرأة

ثم تصور معي أخيراً حياة زوجية تستفتح صباحا عند مطلع الشمس الخيرة المحسنة بأبغض الحلال الى الله، بالطلاق كما قال النبي الكريم ، ولا يستحى الرجل ولا يتعفف ولا يتحرج أن يقسم بالطلاق مرات ومرات ثم يستأنف حياته الزوجية كأنه لم يفعل شيئاً يمنع هذا الاستئناف بل يبطله ويلغيه وفي هذا يساعده ذلك النصاب الكبير أمس البلاء كما قلنا : المأذون نظير رغيفين أو دعوة عشاء أو كيلة اذرة ! كم من الفلاحين من اذا حادثته عن أي شيء اقسم لك فى الحال بمين الطلاق مرات ومرات في هذر وجده ، فى عمله وسمره في سلمه وحربه، في حديثه وغير حديثه بطلب وبغير طلب، وامرأته المسكينة قابعة فى دارها أو مزاولة أعمالها في حقلها أو في بيتها تجهل كل شيء عن زوجها ، تجهل انه يبيعها ويهدمها ويقضي على أولادها ويتصرف فيها وفى ابنائها الصغار كيف تشاء أهواؤه وتريد جهالته تجهل أنه يعيش معها في حرام يبغضه الله ويمقته أو بعبارة أدق وأجلى تجهل أنه يعيش معها لا في زواج حلال بل في زنا محرم فاجر وكل

ما ترتب على هذا الفساد والحرام فاسد حرام فساد الفرع من الاصل والبناء من الجدار !

المرأة في القرى اذن — كما لاحظت بعيني — لاتعامل من الرجل أكثر مما تعامل الماشية والسوائم ولاينظر اليها أكثر من أنها «معمل» لتخريج الاطفال كمعامل الكتاكيت الذين يعيشون في قذارة وبيئة أهون وأحب لدينا ان نراهم موتى أو لانراهم مطلقا من ان نراهم أحياء على هذه الصورة المخجلة القذرة المبكية ، ولاينظر الى المرأة أيضا أكثر من أنها « وعاء » يصب فيه الرجل لذاته وشهواته الجسمية الزائلة الفانية ! أترضى هذه الحال المبكية ، والمخجلة معا أنصار ونصيرات المرأة!

ومن المؤلم أيضاً بل من المبكي حقا ان الفلاح المصرى قد يهون عليه أحيانا ألا يكذب على ولي من الاولياء الصالحين ثم يبيح لنفسه ولدينه ولضميره أن يكذب على ربه وخالقه ! نفسية غامضة غريبة لاتخلو من العجب ولامن الاسى والاشفاق الكثير !

وهكذا تكون حياتنا الزوجية الريفية الداخلية القائمة كما قلنا على الصدف حينا وعلى الجبر والعمى حينا آخر مع ان النبي عليه السلام أشار بوجوب معرفة كل من الخاطب والمخطوبة كل مايهمهما معرفته قبل الزواج فقال « اذا خطب أحدكم المرأة فأن استطاع ان ينظر منها الى مايدعوه الى نكاحها فليفعل» وقال عليه السلام للمغيرة حين أخبره بأنه خطب امرأة : « انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم

بينكما » ولـكننا لانريد ان نفكر ولا أن نبحث ولا أن نسير في حياتنا حتي كما كان يسير من قبلنا فضلاعن أن نساير عصرنا ومقتضيات زمننا ! ! الآن وقد تبين لنا مركز المرأة في القري بأزاء الرجل ومعاملة الرجل ونظره اليها ، وبعدان تبين لنا أن هذا التعاقد الجنسى من الرجل والمرأة تعاقد باطل قانونا في أغلب الأحيان وشرعا ودينا أيضا لأنه لم تراع فيه مطلقا شروط التعاقد الاولية التي من أهمها رضاء الطرفين المتعاقدين وتوافق الارادتين المشتركتين في العقد ، ولأنه شرعا ودينا باطل لما يرتكب فيه وباسمه من أمور ينكرها الشرع ويمقتها الدين كتلك الـكميات العديدة من القسم واليمين دون احترام لدين ودون خوف أو رقابة من الخالق صاحب الاديان جميعا !

اذا تبين لنا كل هذا فهمنا وتصورنا مقدار خلل الحياة الزوجية فى الريف والفساد السائد فيها ، وأمكننا بذلك فهم العلاقة النفسية الباطنية بين الزوجين هناك : زوجان مات فى كل منهما تقريبا الشعور بالحب اللهم إلا في العلاقات والاحوال الجنسية ، زوجان يعيشان عيشا استبداديا مطلقا يرى الرجل نفسه هو الحاكم والسيد المطلق الباطش بأمره ونفوذه حيث يريد ومتى يشاء ، والمرأة المسكينة تري نفسها مجبرة لأن تخضع وتستذل لرجلها . فلقد تربى فيها روح الاستكانة والخضوع للجبروت والذل من الرجل ومن غيره فأصبحت تخاف رجلها وترهبه بدلا من أن تحبه وتحترمه ! فهي جاهلة مسكينة

وهو جاهل مسكين والمرأة الجاهلة كما يقول المرحوم قاسم أمين « تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة أسباب الميل والنفور فاذا أرادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك »

ولذلك هي لا تعرف مطلقا أن تتقرب منه وتتحبب اليه وذلك لجهلها بهذه الاساليب أولا ولروح الخوف والنفور والجبن الذي غرسها الرجل فيها ثانيا ولكنها قد تحسن هذه الاساليب احيانا الى حد ما اذا كان للرجل زوجات أخرى معها وهذا منتشر بدرجة مخيفة مريعة في الريف رغما من فقر الرجل المبكى وشقائه المفرط ولكن لا تدهش كثيراً فثمن المرأة هناك رخيص جداً وأقصد بها المرأة التي تقابل الرجل الذي اقصده أيضا والذي نوهت عنه في كثير من صفحات هذه الرسالة ، لا تدهش اذن اذا علمت ان الرجل قد يتزوج امرأة بجنيه واحد أو ببضع ريالات حبا في الزواج أو حبا فى النسل

ففى هذه الحالة وحدها اذن قد تتقرب المرأة من الرجل وتتودد وتتملق اليه ليعينها على الزوجة أو الزوجات الاخريات وليهبها حبه وقلبه دونهن جميعا ، وكثيراً ما تنشب المعارك وتحتد الشتائم بين هؤلاء الضرائر استجلابا لحب الرجل ، لا لشهوات ولذات الرجل !

والمرأة التي خلقت لتبعث فى البيت جمالا وحياة وسحراً ولتكون جنته أو ملاكه ، ولتجمل لرجلها حياته وتخفف أو تزيل

عنه همومه واعباءه وتشاركه لا جسما فقط بل قلبا وشعوراً وروحا واحساسا فى نعمه وفي بؤسه في تعبه وفى راحته ، وتذهب عنه السآمة والضجر والتعب بما تسري عنه وتلاعبه وتداعبه بأناملها الناعمة الدافئة القطيفية وبأنفاسها الحرى المتصاعدة من قلبها المحب الرحيم النابض وبأحاديثها العذبة المعطرة المتأرجة التي يصفها الشاعر فى قوله :

فمن لؤلؤ تجنيه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وبنظراتها ولحاظها المسترخية الفاترة النافذة الساحرة ، ولتربي اولاده تربية صحيحة قوية ولتخلق فيه حب الحياة وروح العمل والكفاح

مثل هذه المرأة تكاد تفارق ريفنا وتكاد تكون مجهولة هناك كل الجهل ، اذن فماذا تكون وظيفة المرأة اذا لم تكن لزوجها ملاكا يحرسه وطبيبا يعالجه وفنانا يجمل له الحياة ووحيا يلهمه القوة وحب العمل وقلبا متمما لقلبه وروحا أليفا لروحه ؟ واذا كانت المرأة فى القرى تكاد لا تفهم ولا تقدر واجباتها نحو وظيفتها بأزاء الرجل وبأزاء البيت التي هي مملكته وبأزاء أولادها ، واذا كان الرجل أيضا من هو : لا يفهم واجبه نحو المرأة ولا يعترف لها بمركز محترم سام ولا يقدر وظيفتها فى الحياة ورسالتها في العالم ولا يفهم لها وجوداً ذاتيا مستقلا محترما في حدود عملها ووظيفتها ، فلا ننتظر

مطلقا أن تكون حياتهما الزوجية سعيدة هنيئة كما نفهمه ونحسه حين نتصور ونذكر السعادة والهناءة !

آمال ورغبات

الفصل الخامس

وما هذه الآمال والرغبات إلا آمال ورغبات شاب من ابناء الريف شهد بعينيه هذه الحياة الشقية البالغة أقصى مراتب الشقاوة التي يعيشها الفلاح المصري ويحياها هذا المسكين الطيب ، فلم يشأ أن يكتم آلامه ويسكت أنينه بل رأى انه من الواجب ومن الوفاء للوطن وللقرية ومن الاحترام لنفسه ولضميره أن يجأر بالثورة على هذه الحياة التي تتنافي وكل مظهر من مظاهر الانسانية أو الرحمة فى عصر يقولون كثيراً ويرددون انه عصر الحريات وعصر الانسانية ، وما هذه الآمال والرغبات الا مزيج من الرحمة والاشفاق والألم والأمل والشعور الحق بالقومية والصرخة الحارة للأنفة وللعزة الوطنية والدعوة المبتعثة من الجسم ومن الروح ، المتقطعة من اللحم ومن الدم ، الى الهدم ثم الى الانشاء ، فلقد آن الأوان بأن نعمل

معاول الهدم والتقويض في كل مايؤخرنا في سيرنا ويتخذه الغربيون سبة ووصمة لنا ، وفي كل مالا يتفق وصور حياتنا المدنية الغربية المتحضرة ، وفي كل ما يكون نشزاً أو ضعفا أو اضطرابا في لحننا القومي واغنيتنا الكبرى الوطنية ، نعم آن الأوان بألاّ نشفق على قديم لمجرد أنه قديم يخلع عليه القدم صبغة من القداسة وبألا نجبن مطلقا في العمل على تغيير وجهات جميع مرافق حياتنا تغييراً كليا شاملا ، تغييراً لا يفصل بيننا وبين الشرقية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة التى تمتزج بنا لحمًا ودمًا والتى هى فى ماضينا وفي حاضرنا وفي مستقبلنا أيضا والتي هي في عقولنا وفي قلوبنا وفي أرواحنا وفى أحلامنا وفي نزعاتنا وفي ثقافاتنا وفى أعصابنا وفى كل خلية حية من خلايا وجودنا ، تغييراً يبقى لنا الطابع المصري الجميل فى مصريته الفرعونية ومصريته العربية ومصريته الحديثة المصفّاة من هذه الحضارات والثقافات الفرعونية واليونانية والرومانية والعربية واللاتينية والسكسونية ، والممتزجة المتفاعلة بهذه جميعاً

نعم ! لا نريد أن نتغير كأمة لها من حضارتها الأولى ومن هذه الحضارات جميعا مجدها وعزها المقدس طفرة واحدة ونقطع كل صلتنا بالماضى الحبيب الينا المتغلغل فى كل أعصابنا وحواسنا ، بل نريد أن نوفق ما استطعنا بين الماضى والحاضر والمستقبل ليتألف من هذا جميعا لحن جميل واحد للفخار المصري وللقومية المصرية، نريد أن تكون « مصر » التي وسعت أرضها الخصبة ونيلها الخالد كل

الحضارات الانسانية جميعاً والتى غذت من تربتها ومن مائها ومن سمائها ومن تاريخها كل الثقافات القديمة العريقة فى القدم، نريد أن تكون « مصر » هذه لا تتأخر في عصرها الحديث وفي نهضتها الكبرى عن ان تستأنف غذاءها والهامها ووحيها لهذه الحضارات والثقافات الحديثة العالمية، وان تؤدي رسالتها الكبرى الى خدمة العالم جميعاً مؤتلفة من فن الشرق ومن علم الغرب!

إذن ليس لنا مناص وقد اصطنعنا وسرنا على نهج الحياة الغربية الراقية من أن نهدم كل مالا يستطيع البقاء ومايعوقنا عن أن نكون أمة المستقبل الفاخر كما كنا أمة الماضي الخالد، وما يؤخرنا عن أن نبعث من جديد مصر العلوم والفنون، مصر الحكمة والفلسفة، مصر الحب والخير، مصر الحق والجمال، مصر السلام والجلال!

واذا كنا في حاجة الى الهدم لنبدأ فى عملية الانشاء فنحن أحوج الى ان نهدم نظام حياتنا الريفية رأسا على عقب كما يقولون، فان وصمات العار التي تلطخ فخارنا القومي وسخريات الغربيين التى يتفكهون بها علينا وعوامل التأخر والجمود التي تعرقل خطواتنا الواسعة فى الاصلاح وفى البناء، كل ذلك جاثم لنا في الريف وملازمنا أبداً في حياتنا الريفية

لقد وقف القارىء على صورة بسيطة من حياة فلاحنا وآلامه وضروب أرهاقه وغبنه، وعرف ان هذا الفلاح النشط العامل سيد مصر حقا انما يعيش عيشة خشنة قذرة كلها التعسف والاهمال والفقر

والجهل والجمود والحرمان والظلام رغم ما يسكب المسكين من دمه ويقتطع من قلبه ويريق من عرقه ليطعم أبناء مصر وليكسوهم ولينمي ثروتهم بينما هو يتقلب على أشواك الخصاصة والمسغبة وبينما هو يمشي بين الناس نصف عريان لا يمتلك الا اللباس الذي يستر به جسمه ، وبينما هو فى معظم الليالي يبيت طاويا جائعا هو وأولاده المساكين وزوجه الوفية ، ورغم حرمانه كل حقوقه فى الحرية الحقة والتعليم وضروب السلوى والعزاء واللهو وحرمانه حتي حق ابداء شكواه، ورغم عبث الحكام واستغلالهم لجهله ولفقره ورغم تحكم الملاك فيه وفي أولاده ، ورغم تجاهل رجال الحكومات إياه كأنه ليس هو الذي على أكتافه يصلون الى مايصلون من كراسى الحكم ومراتب الجاه ومنازل السطوة والسلطان !

لا نريد الآن ان نعود الى تصوير تلك الحياة الشقية لفلاحنا المسكين فأنا لنحسب أن فيما أوردنا في الفصول السابقة وفيما حاولنا تصويره من حياته كما نعرفها وكما نشاهدها وكما نشعر بها وكما نعتقد ونؤمن أنها الحق نحسب أن في هذا الكفاية النسبية لمن لا يعرف شيئاً عن الفلاح المصرى وعن لون حياته التي يحياها في عصر النور والحريات خصوصا إذا لاحظنا وتذكرنا أننا لا نريد من هذه السطور اذاعة رسالة علمية دقيقة ، فليست هذه السطور كما قلنا في « المقدمة » الا شعوراً حرصنا على تصويره كما هو دون تصنيف

أوترتيب والانداء باطنيا أحسسنا بقوته وسمعناصرخته فقمنا بتبليغه في سبيل الواجب وفي سبيل الضمير !

والآن ، ترى ماذا تكون تلك المكافأة وهذا الاعتراف بالفضل وبالجميل من حكوماتنا ومن ملاكنا وأغنيائنا لهذا الفلاح المصري النشط فخر الصبر والنشاط والعمل فى العالم جميعا ؟ أتدري ماهي هذه المكافأة وما هو هذا الاعتراف بالفضل وبالجميل ؟ : تعسف وحرمان واستغلال وارهاق واهمال واحتقار ! وهكذا يخرج المسكين أثمار الارض للملاك ثم يحرم هو كفاية عيشه ورزق أولاده ، وهكذا تبنى المدارس من غرس يده ودمه ومن عرقه ومن لحمه ومن شقائه ومن نشاطه ثم يحرم هو التعليم فيها كالشمعة التى تنير للناس لتنطفىء هي ، هكذا تخطط المدن وترصف الشوارع وتنار وتزدان علي حسابه ومن جيوبه بل من قلبه ثم يحرم هو داراً نظيفة وعيشة راضية وحياة محترمة موفورة انسانية !!!

يارجال الحكومة ويا أصحاب الارض والطين ! لقد آن لكم أن تدخلوا الميدان وأن تعملوا بجد للاصلاح وللانشاء ، فلئن صبر الفلاح طويلا في العصور القديمة على الضيم والحرمان والاهمال فلن نضمن ولن تضمنوا هذا الصبر وهذا السكوت فى هذه العصور ولئن كانت سياسة الاستعباد قد حالت بيننا وبين الاصلاح المرجو في العصور الماضية فلقد زالت هذه السياسة ولو ظاهريا وأوشكت ان تنفض يديها

من مصالحنا الداخلية الخاصة وأصبحنا الآن مسئولين وحدنا عن نواحي الضعف والاهمال والفساد والخلل في حياتنا الاجتماعية

جودوا يارجال الحكومة على الفلاح المسكين بالتجول فى القرى والعزب والكفور وتنازلوا بالاستماع الى شكاياته التى يبعثها فقره وحرمانه وتكرموا بالنظر وبالتأمل والتفكير فى حياته فسوف تجدون معنا أنه من العار كل العار بل من الظلم وأي ظلم أن يعيش هذا الصنف من الانسان العامل النبيل الطيب الكريم هذه العيشة الوبيئة التي نعرفها وتعرفونها والتي تحرك عيوننا بالدمع السخين وتفجر قلوبنا بالرحمة والشفقة عليه والتى لا نشك مطلقا في أنها تحرك فيكم وتفجر ماتحرك فينا وتفجر وتدعوكم الى نسيان مراكزكم ومناصبكم وجاهكم حينا لتفكروا في وضاعة وحقارة ومسكنة هذه الحياة التي يحياها صنف مسكين ضعيف من الانسان تربطكم به رابطة نبيلة مكينة مقدسة ، لارابطة الوطنية وحدها ،ولارابطة اللحم والدم وحدها ، ولا رابطة اللغة والدين والاحساسات والآلام والآمال وحدها، بل رابطة أسمى وأعلى وأقدس من هذه الروابط جميعاً : رابطة الانسان بالانسان ، رابطة الأخ بأخيه !!

وليس مانعرضه هنا من الآمال والرغبات سوى مطالب متواضعة تدفعنا الى البوح بها والى اذاعتها العدالة البشرية والمبادىء الانسانية التي لانشك مطلقا أنها سوف تجد لها بين ابناء هذا الوادي الطيب الخصيب المبارك أنصاراً وأعوانا إن لم يكن يدعونا اليها شعورنا

القومي وايماننا الوطني ولا نشك مطلقا فى أنكم تشعرون معنا هذا الشعور وتؤمنون معنا هذا الايمان !

وقبل أن نبدأ فى ذكر هذه الرغبات نرى من الحق ومن الواجب علينا أن نسجل حقيقة لامناص لنا من الاقرار والاعتراف بها بين سطور هذه الرسالة ، وهي تلك المحاولة المبدأية التي توجهت نحو التفكير فى شئون الفلاح المصري والريف المصري، تلك المحاولة المشكورة التى أهدتها الينا حياتنا النيابية والتي تشجعنا على التفاؤل وعلى المضي والسير في واجبنا هذا الذي أخذنا نفسنا به ليتم السعى وتنجح المحاولة ونرى ريفنا وفلاحنا كما نحب أن نراهما !

واذا شكرنا هذا السعى الشريف المبرور الى اصلاح العامل المصري والذي أخذ مظهره في بناء حي جديد خاص بالعمال وفي تشريع خاص يحمى حقوقهم أزاء وتجاه أصحاب المصانع وأصحاب رءوس الاموال، نقول اذا شكرنا لحياتنا النيابية ولحكومتنا هذا السعى المبرور وهذه الحركة المباركة بخصوص حماية وتنظيم حياة وحقوق فئة عاملة نشطة حية هى احدى فئات وبنايات ودعامات حياتنا الاقتصادية وثروتنا الانتاجية القومية وهي فئة العمال مجاراة لتلك الحركات الشريفة القومية التي قامت بها جميع دول أوربا وأمريكا المتحضرة ، نقول اذا شكرنا لها هذا فكم نبحي عليها باللائمة لأنها عنيت بطائفة كبرى من طوائف الانتاج وأهملت طائفة قد تكون أهم وأكبر وأخطر في كل نواحي ثروتنا وانتاجنا وهى طائفة الفلاحين، خصوصا اذا راعينا أننا بلد زراعي

وانَنا نعتمد فى كل ثروتنا ومرافق حياتنا المختلفة على الزراعة وعلى الفلاح بمعنى أدق ، فكان يجب أن نبدأ أولا بطبقة الفلاح ثم طبقة العامل ان عجزنا عن البدء بالطائفتين معا، واذا كان العامل المصري سيوفق في القريب الى تشريع يحمى حقوقه تجاه اصحاب الأعمال ورأس المال ويحدد أجوره وساعات عمله حتي يكون بمنجاة من استغلال واستبداد اصحاب المصانع، ثم الى سكنى مريحة هنيئة في حي خاص وفي نظام جديد يتفق ومقتضيات الحياة الجديدة وروحها ونزعاتها، فكم هو أحرى بالفلاح المصري فخر مصر وسيدها بلا نزاع أن يكون له تشريع خاص يحميه من ظلم ومن استبداد واستغلال ملاكه اصحاب الارض والطين وأن ينص صراحة فى هذا التشريع على وجوب تحديد حد أقصي للأيجار حتي لا يستغل الملاك جهالة الفلاح وسذاجته وفقره وحتي يخافوا الله فيه وفي أولاده وليكن هذا التحديد كما أشار السير « ويليم ويلكوكس » وخبرته بالشئون المصرية وبشئون الفلاح المصري خاصة لا يمكن نكرانها أو الجدال فيها .

أشار هذا الرجل الانجليزى مدفوعا بالعامل الانسانى النبيل لا العامل الجنسى بوجوب عدم زيادة قيمة الايجار عن خمسة أو ستة امثال الضريبة المفروضة على الارض وهي تلك الضريبة العقارية التي تختلف قلة وكثرة

فكم ينقذ الفلاح المصري من وطأة الملاك الذين لا يهمهم

إلا أن يسدد لهم المسكين قيمة الايجار سواء أكان من جيبه أم من دمه اذا سن تشريع خاص للايجارات يحمى الفلاح من مظالم الملاك ويمكنه من أن يعيش حياة متوسطة معتدلة انسانية محترمة ، ويحدد هذا التشريع حداً أقصى للايجار وتحدد عقوبة أو غرامة لمن يخالفه ، فاذا فعلنا هذا — ونأمل أن نفعله قريبا — هذبنا انسانية الغالبية الساحقة منا وخففنا عليها بعضا من ارزائها ومصائبها ومظالمها وأنحنا لها الأمل في حياة جديدة مريحة واسعة عادلة !

واذا كنا قد فكرنا في شئون العامل وشرعنا في وضع تشريع خاص له ينظم حياته ويحمى حقوقه فأولى بنا أن نفكر فى شئون الفلاح المصري وأن نشرع في وضع تشريع خاص له اسوة بأخيه العامل ، وأن نضع أيضا نظاما خاصا لسكناه كما نريد مع أخيه العامل ، ولقد آن لنا ونحن في عصرنا هذا وفى عهد أحيائنا القومي العام أن تضع لائحة خاصة لنظام البناء والسكنى فى الريف فمثلا نشترط على من يريد بناء دار له ألا يخرج على قواعد تلك اللائحة بأن يبني داره بالشكل وبالنظام وبحسب الشروط المدونة في تلك اللائحة وان خالف ذلك فيعاقب بعقوبات مختلفة .

ولهذا الغرض نأمل كل الأمل أن تكوّن لجان خاصة فى الدوائر الحكومية يكون من اختصاصها النظر فى هذه المسألة الهامة وأن يعين من الفنّيين والمهندسين في كل مركز من مراكز المديريات يباشر كل واحد منهم ويراقب في حدود مركزه واختصاصه عملية

البناء بهذا النظام الجديد وهو الذي يضع لهم الرسوم والتصميمات التي يجب عليهم أن يبنوا وفقا لنظامها وقواعدها وتكون هذه الرسوم واحدة متجانسة في كل ابنية القرية.

اذا فعلنا هذا — وأملنا كبير فى فعله — جعلنا من القرية المصرية وحدة شكلية متجانسة تريح النفس وترضي القلب والذوق وتذكرنا بأن فى حياتنا المصرية الريفية نظاما وذوقا وتجانسا

ولكنى نسيت ! ليتم لحياتنا الريفية جمالها كما نبغى يجب أيضا أن يسن في تلك اللائحة على وجوب القاء الردم والسباخ وما اليهما من أوحال وقاذورات فى الجهات القبلية من القرى لا من بحريها وبعيداً عن الدور بمسافة تضمن عدم وصول رائحتها للاهالي

نظن ألا مبالغة فيما نقول ولا اسراف فيما نطلب فأنه قد وجب علينا كأمة تشعر بحيويتها وبكرامتها وبذاتها ان ننظم كل مرافق حياتنا وخصوصا الداخلية منها، ولا نظن شيئا هو فى أشد الحاجة الى هذا التنظيم مثل حياتنا الريفية التي بقيت على حالها الى الآن كما كانت فى عهود العرب والاتراك والمماليك ومن اليهم !

من واجبنا جميعا حكومة وشعبا ان نجعل من ريفنا جنات خضراء نحج اليها اذا تكدست على قلوبنا هموم الأسى أو أضعفت المدن وملاهيها من ايماننا ، من واجبنا جميعا ان نسير بالريف كما سرنا بالمدن وبكل نواحي الاصلاح التي سرنا بها والخطى التي خطوناها ، حتي لانهرب بذلك من بلادنا الى ربوع الغرب نبحث

هناك عن السلوى ونتفقد العزاء والراحة واللهو ، ومن واجبنا جميعا أن نحبب الينا ريفنا الذي درجنا على أرضه وبين ربوعه الهادئة البريئة بأن نجمله وبأن ننظمه ليكون دائما جميلا أمامنا حبيبا الينا عزيزا علينا ، فانه في حالته الآن وبصورته التى هو عليها فى النظام القديم الذى شهد عصور الاقطاع وعصور السخرة وعصور الاستبداد ينفر كثيرا منا عنه وقد تربينا في أحضانه بين حقوله وقنواته وسواقيه وأجرانه ، وقد نقشت ذكرياته الحبيبة الخالدة فى رءوسنا وفي صدورنا وفي قلوبنا ونمت مع عقولنا وخيالاتنا وأحلامنا ، اذ ماذا نشعر الآن في هذا العصر وريث وربيب تلك العصور القديمة المظلمة والذي يأخذ شيئا فشيئا الى الانسلاخ المعتدل عنها ؟ . كآبة دائمة وقطوب مستمر فلن نشهد في الريف جديدا ، ولن يتغير شعور يومنا عن أمسنا ولن نأمل كثيراً أن يكون غدنا خيرا من يومنا ، حياة ثابتة جامدة لاجدة فيها ولاحياة ، مانراه اليوم نراه غدا ، الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب والحقول تخضر وتيبس والمواشي تذهب وتجىء ، والفلاحون يعملون فى الغيطان ثم يعودون ، والنساء يحملن جرارهن أو يعملن في الحقول مع رجالهن والاطفال في الحارات يتمرغون في التراب أو يلعبون ! حياة مبقية على ثيابها خلال كل هذه الأجيال المتناسلة والعصور الطويلة ، فالرجل الذي تقابله اليوم قد لا يقابلك الا هو في الغد بنفس الصورة والشكل والوضع الذي رأيته عليها بالأمس واليوم ، والمرأة التى

تشاهدها اليوم في الغيط أو على الترعة هي هي التي قد تشاهدها غدا بنفس ملابسها وهيئتها ، ومشاهد الطبيعة وكل ما حولك من أرض وسماء وماء وشجر هي هي التي شهدتها بالأمس وتشهدها اليوم وستشهدها غداً وبعد غد والى ان يرث الله الارض ومن عليها ، والساقية التي تمر بها الآن وتسمع غناءها وموسيقيتها هي التي مر بها غيرك مئات المرات وهي التي ستمر عليها أنت آلاف المرات لن تتحول عن مكانها ولن تغير من موسيقيتها أو تجدد في غنائها ، والاصوات التى تسمعها اليوم من أفواه الناس ومن غناء الفلاحين ومن الارغول والمزمار والسلامية هي التى سمعتها بالامس وهي التي ستسمعها غدا وغدا وصاحبها اليوم هو صاحبها بالأمس بل صاحبها منذ أعوام في صوته وفي هيئته

وهكذا حياة الريف عندنا في كثير من بقاعها ونواحيها : جمود لا يعدله جمود وقديم عريق في قدمه ، حياة لا يشعر فيها الغريب أو المدني أو المستنير بجدة فى الشعور أو حيوية في العواطف أو ائتلاف في الميول ، وانما يشعر أنه غريب عما حوله بنزعات فكره وبخواطر نفسه وبآماله وبآلامه وبميوله وبشهواته ، ويكفى كل هذا لأن يجعل الانسان غريبا حقا بكل معاني الغربة !

فكم نحن في حاجة الى ان نجعل من هذا الريف المهمل المنبوذ جنات نحج اليها ونجدد فيها حبنا وعواطفنا ونتغذى منها مبادىء عبادة الجمال !

واذا كنا قد جهرنا بتنظيم حياة السكني في الريف وبتجميله بحيث يتفق مع ما نصبو اليه من مظاهر الحضارة والقوة والنظام والجمال فلن يكون جهرنا بالاكثار من المستشفيات والمصحات وكل وسائل الصحة في تلك الربوع الريفية المحرومة منها اضعف اوأخفت؟ كلنا نعلم أن الامراض العديدة كالبلهارسيا والانكلستوما وأمراض الرمد وما اليها جميعا تغزو فلاحنا المسكين وتهدد حياته وتجعل من لون بشرته ووجهه لونا حائلا باهتا مائلا الى الصفرة والى الذبول والى فقد الدم والحياة وكلنا نعلم ان فقره وبؤسه يحولان بينه وبين تطبيب نفسه ونعلم أنه حين يعجز عن وجود المال يضطر الى الاستدانة ولو بفائظ فادح من جماعة المرابين وقد يضطر المسكين الى بيع ماعنده من غلال أو مواش أو نعاج! كل هذا نعلمه ونشاهده كل يوم ونسمع أنات المرضى ونرى الوجوه الحائلة الباهتة والصدور الشاكية، فهل لم تبلغ بنا الى الآن الشفقة والرحمة بهذا المسكين الذي يدر علينا الخير والنعمة والخصب من فوقنا ومن تحتنا ومن يميننا ومن شمالنا أن نبنى له المستشفيات التى تنقذه من غزوات أمراضه العديدة ومن فتكها بحياته الغالية علينا جميعا! لا لأنه مصري تربطنا به رابطة الجنس واللغة والدين والمشاعر والاحساسات وحدها، بل لأنه أكبر وأشرف من ذلك، بل لأنه انسان؟!

وبهذه المناسبة لا نود أن يفوتنا تسجيل تلك الظاهرة الطيبة التي

أخذت تبدو تحت سماء مصر المحسنة الخيرة خلال هذه الشهور الاخيرة بفضل جماعة من اغنيائنا نسوا جاههم وأنفسهم حينا وذكروا مصر التى من أرضها وتحت سمائها نشأ غناهم ونما وترعرع وازدهر ، نعم يسرنا كل السرور ان برزت هذه الجماعة الفاضلة من رجال المال في مصر تحمل راية الخير والاحسان . وتتزعم وتقود عملية البناء في بلد حديث العهد بالبناء ، والذي يسرنا أكثر من هذا ليس العمل نفسه بل تلك الدلالات التى يمكننا أن نستقيها منه ، فلقد بدأنا نقدر الاحسان وبدأنا نشعر ونأسى لجراحات المعوزين ، وبدأنا نذكر أننا لا نعيش في هذه الحياة لأنفسنا فحسب بل نعيش لأنفسنا وللجماعة وللوجود وللانسانية جميعا ، وبدأت قلوبنا تتفجر عن حب الخير لمن امضهم العوز وذلهم السؤال وهدهم الفقر ، وبدأنا نفهم ونعرف أن الحياة ليست في جلب المال وتكديسه وا كتنازه فحسب ، وانها ليست في بناء القصور وانشاء الرياض وحيازة الخدم وعبادة الطين والمال فحسب، ولكنها أيضاً في جبر القلوب الكسيرة وفي تضميد الجراحات الدامية وفي تجفيف سيول الدموع الذليلة ، وفى اعلاء شأن هذا الوطن الذي درجنا على أرضه وتغذينا من ثماره وارتوينا من مائه ، وفي تهذيب ناحية من نواحي الانسانية المعذبة بالبناء وبالصقل وبالتجميل

اذن ليست الحياة ان نأكل ونشرب فحسب ، ولكن أن

تشعر وأن نعطف ؟ أن يكون لنا بطون وأمعاء تحسن ازدراد الطعام وهضمه، وانوف تتلذذ برائحة الطهي ، ولكن أن يكون لنا قلوب تخفق بالحب وبالرحمة ، وأعصاب تتأثر للعوز وللذلة ، ونفوس وأرواح تأنف الضعة وتقدس الكرامة وتعبد الجمال !

نسجل اذن والسرور يملأ نفوسنا ويغمر قلوبنا تلك الحركة المباركة المشكورة فى سجل مصر الحديثة ونأمل من كل قلوبنا أن تفشي ثقافة الخير والاحسان في مصر الخصب والجود والخير والجمال والاحسان ! ونستزيد تلك الحركة المباركة نشاطاً وعملا وسعيا ونأمل أن يكون عندنا فى مصر بين رجال الطين والمال غيرة ومنافسة في عمل الخير والاحسان وفى عمليات البناء ، والانشاء ، كما يغارون ويتنافسون في تكديس الاموال وفي بناء القصور وتوسيع الضياع !

ونريد ان نذكرهم دائما بأن مصر الحديثة فى حاجة الى بعض أموالهم ليتم بعثها واحياؤها ولتقف على أرجلها بين الأمم التي تشعر بوجودها وتتيه بمجدها وفخارها ، وبأن الواجب يقضي عليهم أن يتحملوا نصيبهم من الاصلاح في سبيل مصر وفي سبيل الانسانية جميعا !

ونريد أن نذكرهم أيضا بأن الامم بافرادها لا بحكوماتها ، فالافراد هم تلك الخيوط المنسوجة في ذلك الثوب المزركش المحبوك ، وليست الحكومات الا أداة تقوم بارادة الشعوب ، وليكن لهم من

أغنياء أوروبا وأميركا خير مثال يحتذي اذا كانوا يريدون ان يقوموا بواجبهم ويلبوا النداء الصارخ، ونحسبهم فاعلين !

* * *

تأتي بعد ذلك مسألة التعليم وهي مسألة المسائل بلا جدل ، فلا يزال الجهل أعدى أعدائنا ، ولا يزال هو المستعمر مصر لا انجلترا كما نظن ، وللتعليم في القرى أهمية خطيرة لأنه التعليم الاولي وهو اللبنة الاولى في البناء التعليمى ، وأولى باللبنة أن تكون قوية مكينة ليكون البناء مدعما متينا ، ونحن وان فرحنا وشدنا بتلك المدارس الاولية الالزامية الصغيرة التى خلقتها حياتنا النيابية ، فاننا نحب ان نسجل هنا فى تلك الرسالة الصغيرة أسفنا الكبير على اندثار الكتاتيب القديمة اندثاراً نشاهده يخطو خطواته بالتدريج، فلقد كانت هذه المدارس الحديثة عاملا كبيراً في هدم هذه الكتاتيب فهدمت بذلك تلك الصور والذكريات الجميلة الأولى في فطرتها وفي بداوتها ، وكانت أشد خطورة من ذلك، كانت العامل الاكبر في الغاء التعليم القرآني شيئاً فشيئاً وتلك نكبة النكبات جميعاً !

نعم ! فاننا ننسلخ شيئاً فشيئاً من الروح الديني فى مدارسنا الاولى ومن التعليم القرآني وابتدأ يطغي علينا وعلى عقول ناشئتنا الصغيرة تلك السيول الجارفة من التعليم الحديث الذي هو الى القشور أكثر منه الى اللباب والى حشو الادمغة اكثر منه الى تنمية العقول وصقل النفوس ، ومن العجيب حقا فى هذه المدارس

الريفية الصغري ان الصبي يتلقى من هذه القشور مالا يتفق مطلقا وعقله الصبى الناشيء ، فلست أدرى كيف يسيغ عقل فى سن السادسة أو السابعة مبادىء التاريخ الطبيعي أو التربية الوطنية ، ان هذه طفرة تشبه الجنون ، ومن اعجب العجب أيضا ان كثيراً من المدرسين فى هذه المدارس الريفية لا يعرفون من هذه العلوم الحديثة الا مافى الكتب المقررة للتدريس ،وكان الله يحب المحسنين !

وكم نأمل ونحن نكتب هذه السطور أن تكون خطواتنا جميعا أكثر اتزانا وريثا واعتدالا حتي لا يتخمنا الطعام فننفجر

نأمل الا يذهب أبناؤنا واخواتنا في التعليم الأولي ضحية هذه البرامج المزوقة كما ذهبنا نحن ضحاياها ،، نأمل أن نقضى على تلك الفكرة القديمة والتي لا يزال فيها بعض من الحياة الى الآن وهي أن الغرض من التعليم كما أراد السيد « دنلوب » تخريج الموظفين وكتبة الدواوين وسعاة المصالح والتعهد للمشارب والقهاوي وللاندية وللأرصفة بما يكظها ويملأها من شباننا !

ونأمل أن يكون التعليم القرآنى هو الاساس الأول لهذه المدارس الالزامية لأن في القرآن الكريم كياننا ووجودنا وقوميتنا كما قال بحق أحد المستشرقين حديثاً !

ونحب هنا بمناسبة التعرض لمسألة التعليم أن نسجل رجاءنا الكبير لوزارة الزراعة بأن تجعل من الفن السينمائى وسيلة الى تعليم الفلاحين الطرق الحديثة في الزراعة التي توصل اليها الفن الزراعي

في أوروبا وأمريكا وتعلمهم بذلك زراعة محصولات جديدة وتعهد الزرع بالحفظ والعناية وتعلمهم بخاصة فن الخضروات والبساتين وتلك الصناعات الزراعية العديدة التي تنشأ مع الزراعة كعمل المربات والزبدة وتجفيف الفواكه وعمل الحبال الى غير هذه الصناعات الزراعية العديدة التي تمخضت عن الفن الزراعي حديثا وتعلمهم بخاصة كيفية حفظ الزرع من آفاته الزراعية التى تفتك به وتقضي على جزء كبير من محصوله

ونأمل مع تقدم الكهرباء أن يكون لريفنا نصيب منها حتى تتعدد صناعاتنا الزراعية وحتى ينتقل الفلاح المصري من طور العمل اليدوي الى العمل الكهربائى ، وهذا الامل وان يكون لا يزال جنينا فانه على كل حال أمل ، وكل الاعمال انما كانت أولا مجرد احلام وآمال !

وكم نحب هنا بهذه المناسبة أن نلفت نظر اغنيائنا وكبار زراعنا الى زراعة الفواكه والخضراوات بدلا من الانغماس فى زراعة القطن والقمح وحدهما فان مصر فقيرة من هذه الناحية فقراً مدقعا ، وهم بذلك انما يزيدون في انتاجنا وفى خلق ربوع للمناظر الجميلة ، وبذلك يمكننا أن نزرع الذهب على حد تعبير الاستاذ سلامه موسى

* * *

وما أحوجنا ونحن بلد حياته في الزراعة الى الجماعات التعاونية الزراعية ، خصوصا بعد ان عملنا كل جهدنا في تصوير حياة الفلاح المصري البائس البالغة حياته اقصى مراتب الفاقة والعوز ، فالحكومات تتجاهل وجوده وهى مع ذلك تعيش عليه ، والمالك يستبد به ويرهقه ويكاد يستعبده ،وكل ماحوله الب عليه ، ازاء هذه الحال المبكية الاليمة كان من المعقول أن يكون له جماعات تشعر بشعوره وتفهم لغة آلامه، تنجيه من استبداد المرابين وطغيان الملاك وتجاهل الحكومات وعداء الاقدار ومصائب الحياة ، وتنجيه أكثر من ذلك ، من شر جهله فيما يبيع ويشتري !

ولقد ولدت عندنا هذه الفكرة حوالي سنة ١٩٠٤ ثم مشت بعض خطوات وهي في طفولتها الاولى ، ثم عجزت عن السير ولم تقو على الحركة ، ثم عاودت نشاطها في عهدنا النيابي الحديث، وأخيراً ركنت الى الدعة والى النوم والى الخمول

ولسنا ندري كيف تكون أرواحنا في الزراعة ثم لا تتشرب نفوسنا الروح التعاوني ولا يكون لنا نظام تعاوني منظم قوي منتج؟ أمامنا بلاد التعاون الكبرى مثل دنمرك وألمانيا وفرنسا وانجلتره فلماذا لانبحث عن أسباب نجاحها وأسباب فشلنا ونبني نظامنا التعاوني على تلك الاسس القوية المتينة الخالدة ؟ لاينقصنا شيء سوى الارادة وسوى الشعور بالحاجة الى هذه الجماعات ، ولكن مادامت حكوماتنا تنفض يدها من مساعدة هذه الجماعات ماليا

وأديبا ومادام أغنياؤنا أو أكثرهم لا يعنون الا بأنفسهم والا وراء تكديس الاموال ثم بعثرتها فى مصافي أوربا وفى مشاتيها فسنبقي على مانحن عليه أبد الآبدين ، وسيبقى فلاحنا المسكين نهبة الطامعين وضحية المرابين ولعبة في أيدي اللاهين ،وسيبقي المسكين ضحية جهله فيبيع محصوله بنفسه بثمن بخس أو يبيعه له مالكه بثمن ان كان عظيما فالذي يستفيد من ذلك هو المالك لا الفلاح ، فالملاحظ فى كثير من القرى أن الفلاح ليس له الا محصول الذرة والمحصول الشتوي أما القطن فللمالك فأن لم يسدد منه الفلاح إيجاره فيولي وجهه شطر ماحصل عليه المسكين من الذرة والغلال وان زاد عن الايجار كان الربح للمالك وحده فيكون بذلك الغرم على الفلاح دائماً وليس له من الغنم شيء

وغير ذلك فان جماعة المرابين اللصوص تعيش على جهله وعلى عوزه وحاجته ، ومن النادر الا يحتاج اليهم خلال السنة خصوصاً في شهور الضنك والجدب، وهنا يعطونه من جيوبهم ليأخذوا ويقتطعوا من قلبه ويشربوا من دمه

ازاء كل هذا كان من طبيعة العدل أن يكون لنا جماعات تعاونية تأخذ بيد الفلاح المصري من هذه الوهدة وتريه النور وتشعره الراحة والطمأنينة وخصوصا جماعات التوريد والمصارف التعاونية ، ولتنجح هذه الجماعات يجب كما قلنا ان تنزعها أولا الحكومة ولو من طريق الاشراف أو المراقبة أو المساعدة وان نعمل الدعايات

الكافية لبث الروح التعاوني بين الفلاحين بواسطة جماعة من المتعلمين وبواسطة نشرات دورية عن الحركة التعاونية ، ولكن نرى أن تكون الخطوة الأولى في ذلك استشعار الفلاح المصري أولا بفائدة التعاون ، لأنه بدون ذلك لن يقوم للتعاون في مصر قائمة ، وهذا الاستشعار يكون بالتعليم وبالمحاضرات من رجال الزراعة ونشر المعارف الأولى للنظام التعاوني وطرقه في غرب أوروبا

ويوم يكون لنا هذا النظام يوم نشعر ونؤمن ان الفلاح المصري بدأ يرى بعينيه النور ويتصل بالوجود وبالعالم ، وهذا العمل من واجب كل مصري تحركه الشفقة بوطنه وباخيه الفلاح ، وهنا نقول لكل مصري ما قال « ولنجتون » لجنوده : « ان مصر تطلب من كل منكم أن يقوم بواجبه » !

ولقد آن الاوان لأن يكون لنا صناعة زراعية فمن العار كل العار ان نكون بلد زراعي ثم نشتري الجبنة والزبدة من يد الغربيين ، واذا كان البعض قد قال ان مصر لا تصلح للصناعة فان هذا القول تخدير للاعصاب ويراد به قتل مصر فلسنا نعرف لشعب حياة موفورة صحيحة بدون صناعة ، خصوصاً وان الصناعة الآن هي محور النظام الاقتصادي في كل ربوع العالم

إذن من أول واجباتنا ان ندعو الى الصناعة الزراعية في مصر كصناعة الالبان وعمل الزبدة ، ويمكننا أن نتخذ « دنمرك » في

ذلك مثالا نحا كيه ، ثم صناعة الحبال بعد ان ندخل في مصر زراعة « القنب » ، ثم عمل المربات وتجفيف الفوا كه حتي يكون هناك بذلك مجال فسيح لعمل النساء الى غير هذه الصناعات العديدة التى أشار بها تقرير لجنة التجارة والصناعة في سني الحرب والتي بعثها من مرقدها أخيراً بنك مصر في تقريره القيم الجديد يرفع به صوت مصر الى الحياة والى البعث والى القوة والى الانتاج

نعم آن الأوان أن نخطو في عملنا خطوات جريئة وان نقطع تلك المراحل التي قطعها العالم الاوروبي والامريكي وان نستخدم ثرواتنا المكتنزة المدفونة المجهولة والا نعتمد مطلقا على الزراعة وحدها والا حق علينا الفناء ان عاجلا وان آجلا

والماء ! ليس ماء ما يشرب الفلاح المسكين ولكنه عكارة وطين وميكروبات في مستنقعات مليئة بالجيف والنتن ، ولن ترضى هذه الحال السيئة انسانا له قلب وضمير

لقد سمعنا بالمشروعات الحديثة حول تكرير الماء في القرى وحول ردم البرك والمستنقعات ونخشى كل الخشية ان يموت الجنين في بطن أمه قبل أن يظهر الى عالم الوجود ، فقد تعودنا في مصر أن نسمع كثيراً من معمل المشاريع الميتة ثم لا نرى شيئاً

ولعلنا في هذه المرة نرى الجنين يحبو ويرتع ويلعب ويكافح الحياة والوجود

وبمناسبة الماء نريد ألا تفوتنا تلك الملاحظة التي نلاحظها فى كل ربوع ريفنا وهي تلك الشكوى الصارخة من سوء التصرف فى المياه ، وياليتها تقف عندحدالشكوى والصراخ ،اذن لهان الامر ، ولكن هي أخطر من ذلك فان الفلاح المصري اذا ما عزت عليه المياه وكثيراً ما تعز أخذ يلعن في الحكم المصري وفي الموظفين المصريين وتدرج من ذلك الى الاشادة بالحكم الانجليزي وبالموظفين الانجليز الذين كانوا يحسنون تصريف المياه وتوزيعها بعدل بين الناس ، ولا يمكننا مطلقا أن نلوم الفلاح على هذا لأن فى الماء حياته ولان الموظفين المصريين غالبا يتخذون نحوه خطة لا تساعد على الألفة والعدل والطمأنينة ، وهكذا يهدمون ما نبنى ويخمدون هذا الشعور الوطنى البحت الحي الذي خلقته فى قلوبهم تلك النهضة الكبرى المباركة ! فعسانا نقبل على عهد جديد حي ، وعسانا نتعلم كيف ننظر الى الفلاح وكيف نحترمه ونقدره !

والآن يجب أن نختتم ونقول ان هذه الآمال التي ذكرناها وهذه الشكاية الصارخة التى بحنا بها ليست الا صدى لآمال الفلاح المصري ولشكاياته ولجراحاته ، وليست الا جزءا مما يدور بخلدنا جميعا من آمال لانهاض البلد وهدم كل مالا يتفق ونهضتنا ولانشاء جيل جديد يشعر ويضطلع بالمسئوليات الكثيرة الملقاة على كاهله وبالتركات السيئة التى خلفها لنا السلف والآباء وقالوا : « وبعدنا الطوفان » !

نوجه اذن نداءنا الصارخ الى كل مصري حر كريم ، الى كل من تحركه ولو ابسط عوامل الرحمة والانسانية ،ان يوجهوا أنظارهم جميعا الي الريف المصري النائم المنبوذ ، فهناك الفقر فاغر فاه ، وهناك الجهل جاثم في مربضه و ناشر أجنحته السوداء ،وهناك ضروب البطش والجور على أحدث طراز ،وهناك تلك البقية الباقية من عصور المماليك المناكيد ، هناك يجب أن نبدأ بعملية الهدم لنشرع في عملية البناء ! . .

* * *

الفلاح المصري يناديكم يا أنضار « حقوق الانسان » !

تم

